إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العرب معدّمون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن إستمرار عطائهم
(أبو عبدو)

مريد البرغوثي

طال الشتات

دار الكلمة للنشر

http://abuabdoalbagl.blogspot.com
أبو عبدو البغل

مريد البرغوثي

طال الشتات

دار الكلمة للنشر

الفهرست

الإهداء ٩
رجل ١٠
رضوى ١٢
غبطة ١٤
شخص ١٦
باب العامود ١٩
سيدتان ٢٢
تفسير ٢٣
مقومات ٢٤
أمّنا ٢٥
موج ٢٩
مَدْرَج ٣١
أبو منيف ٣٣
البنفسج ٣٩
كلاشينكوف ٤١
الغائب ٤٣

لو ٤٥
فصيح ٤٦
قبل الأوان ٤٧
الخنزير ٥٠
الحظيرة ٥٢
زوزو ٥٤
في القلب ٥٦
صورة ٥٧
الطائر ٥٩
الترويض ٦٢
المقلاع ٦٦
دقائق ٦٨
أنتِ وأنا ٧٠
أيقظوه ٧٢
أضع اليد اليمنى على الخد الأيمن ٧٦
طال الشتات ٨٥
لي قارب في البحر ١٠٠
غرف الروح ١٠٩

صدر للشاعر

١ ـ **الطوفان وإعادة التكوين**: دار العودة ـ بيروت ـ ١٩٧٢

٢ ـ **فلسطيني في الشمس**: دار العودة ـ بيروت ـ ١٩٧٤ .

٣ ـ **نشيد للفقر المسلح**: الإعلام الموحّد ـ بيروت ـ ١٩٧٧ .

٤ ـ **الأرض تنشر أسرارها**: دار الآداب ـ بيروت ـ ١٩٧٨ .

٥ ـ **قصائد الرصيف**: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ـ ١٩٨٠ .

صدر عن دار الكلمة

في وصف حالتنا	محمود درويش
هي أغنية ـ هي أغنية	محمود درويش
شخص غير مرغوب فيه	سميح القاسم
خذ وردة الثلج خذ القيروانية	سعدي يوسف
بالشباك ذاتها	
بالثعالب التي تقود الريح	سليم بركات

إهـــداء

إلى منيف البرغوثي

رَجُل

رَجُلٌ كَطَقْطَقَةِ الحَطَبْ
في المِوقِدِ الشتويِّ
يرتَجِلُ المواعيدَ الجميلةَ مع تفاصيلِ الحياةِ،
شَرارُ بَهْجَتِهِ يُشَعْشِعُ حولَهُ
ويوزِّعُ الصَّخَبَ المَليحَ على الأماكنِ والصِّحابِ
يكادُ يلمس جبهةَ الدُّنيا
يُلاطِفُها إذا حَزِنَتْ
يُفَرفِطُ عقدَ لُؤلؤها ليلعَبَ مثلما يَهوىٰ
فتعبسُ، ثم تضحكُ، ثم تُشرِكُهُ اللّعِبْ.
رَجُلٌ كطَقطَقةِ الحَطَبْ
في الموقدِ الشتويِّ
ماذا جدَّ حتى يستبدَّ بِهِ

سكونٌ موحِشٌ
مثل الرمادِ وقد تولى الساهرونَ
وخَلَّفوا آثارَهُمْ
في جَعْلكاتِ مَقاعدٍ هُجِرَتْ
وملءَ منافضٍ لم تُخْلَ بَعدُ مِن النّميمةِ
والبَلادةِ، والحنينِ (المرتخي دوماً) إلى وطنٍ
مقيمٍ في التَّعَبْ؟
رَجَلٌ يكادُ يزيحُ جدرانَ المكانِ لكي يهيء مطرحاً
لِلَهيبِهِ المحبوسِ،
يَعرفُ ما ألمَّ بهِ
ويَسْحبُ قشعريرَتَهُ الأليفةَ للسريرِ
يشدُّ أطرافَ الغطاءِ، ويُغمضُ العينينِ
كَيْ لا يَنْتحِبْ.

١٩٨٧/٣/١٣

رَضْوىٰ

عَلَى نَوْلِها، في مَساءِ البلادْ
تُحاوِلُ رَضْوى نسيجاً.
وفي بالِها كلُّ لَونٍ بهيجٍ
وفي بالِها أُمَّةٌ طال فيها الحِدادْ.
على نَوْلِها، في مساءِ البِلادْ
وفي بالها أزرقٌ لَهَبِيُّ الحَوافِّ
وما يمزجُ البرتقالَ الغُروبيَّ
بالتركوازِ الكَريمِ
وفي بالها وردةٌ تستطيعُ الكَلاَمَ
عنِ الأرجوانِ الجريحِ
وفي بالِها أبيضٌ، أبيضٌ، كَحَنَانِ الضِّمادْ.
على نَوْلِها، في مَساءِ البِلادْ

وفي بالِها اللّوتسيُّ المبلَّل بالماءِ
والأخضرُ الزّعْتريُّ
وَصُوفُ الضُّحى يتخلَّلُ قُضْبانَ نافذةٍ
في جدارٍ سميكٍ فيدفىءُ تحتَ الضلوعِ الفُؤادْ.
على نَوْلِها، في مساءِ البلادْ
وفي بالِها السنْبُليُّ المُعَصْفَرُ
والزَّعفرانُ الذي قد يُجيبُكَ لو أنتَ ناديتَهُ
والنخيليُّ وهو يلاعِبُ غيماً يحاذيهِ
في كفِّها النَّولُ مُتعبَةً
تمزجُ الخيطَ بالخيطِ واللّونَ باللّونِ
تَرْضَى وتَسْتاءُ، لكنّها
في مَساءِ البِلادْ
تُريدُ نسيجاً لهذا العراءِ الفسيحِ
وترسم سيفاً بكفِّ المسيحِ
وجُلْجُلَةً مِنْ عِنادْ.

١٩٨٧/٣/٢٦

غِبْطَة

سِراعاً،
تُغلِّلهُمْ ضجَّةُ الرَّكْضِ
لا ينظرونَ إلى الخَلْفِ
عاصفةٌ من غُبارٍ تُلاهِثُهُمْ
والزمانُ مهـاميزُ تدفَعُهمْ للأمامْ
فلا وقتَ فيه لدفنِ الذي مات ركضاً
ولا وقتَ للشاشِ حولَ الجراحِ
ولا وقتَ للاختبارِ الدقيقِ لجسمِ الرياحِ
وروحِ الطريقِ، ولا أذنَ تسمعُ نُصحاً
يهزّ وثوقَ الوُثوقِ
ولا عينَ تُبصِرُ إلا أمام الأمامْ.
ولا ضيرَ في كُلِّ ذلكَ. . .

لكنَّ ما يركضون إليهِ جميعاً،
تَكَوَّمَ، مُنْسَجِماً،
خَلْفَهُمْ.

١٩٨٧/٣/١٤

شخص

بَنَتِ الشَّياطينُ الصغيرةُ بيتَها في جِسمِهِ
فَوضى، مُرتَّبةً، بِلا فوضى!
تَنُطُّ سَناجِبُ الشهواتِ فيهِ
يُرَتِّبُ الدُّنيا كما يَهوىٰ
ويهدمُ ما تُرتِّبُهُ يَداهْ.
قَلِقٌ،
كأنَّ يقينَهُ المفتوحَ
مفتوحٌ عَلى حَقْلينِ مفتوحَينِ في
أُفْقٍ يُحيِّرُهُ
لهُ ضَوضاؤُهُ أنّى استقَرَّ
وصمتُهُ صَمْتُ المرايا في الظلامِ
وينتقي هِندامَهُ الروحيَّ مِنْ ضوءِ الحريرِ

ولا يطيرُ
ولا جوابَ يقيم فيهِ مُطوَّلاً
وتجولُ في شُرفاتِهِ
قططُ السؤالِ الجائعاتُ
وليس قِدّيساً ولا وَغْداً
ولكنْ جَيِّدٌ مِثْلي ومثلَكَ
سَيّءٌ مثلي ومثلَك، مثلَنا
يمشي على طُرقِ الحياةِ مُخبِّئاً في جيبهِ
أدَواتِ تجميلِ الخِصالِ
يسوقُ أشتاتَ المَباهجِ كالخِرافِ أمامَهُ
ووراءَهُ ما يَذْكُرُ الناسي من الخَيْباتِ
والحُزنِ المضلَّعِ كالحديدِ
هو المهدَّدُ والعنيدُ
هو الخبيثُ هو الوَديعُ
هو الذي رَفَعَ اليقينَ إلى مصافِّ الشكِّ
يخشى أن يُضيِّعَ في زحامِ السوقِ لوءْ لوءَ رُوحِهِ
ويرى النجاةَ يعزُّ مَطْلَبُها
فيلهثُ في مُراوغَةِ المِهالِكِ

مُفْرَداً، في خمسِ قارّاتٍ،
ككلِّ بني البَشَرْ!

١٩٨٧/٣/٣٠

باب العامود

بابُ العامودْ
رائحةُ الأسلافِ الأولى
قوسٌ من صَمّتٍ يوشِكُ أنْ يحكي .
ضجةُ أحفادٍ وهدوءُ جُدودْ .
حَجَرٌ صارِمْ .
حَجَرٌ شفّافٌ يُمْكِنُ للعينِ
مُشاهَدة الدّهر خلالَهْ!
حَجَرٌ يتأمَّلُ حالَهْ!
باقٍ، لا يَرْحَلُ إلاّ للتاريخِ وللذِّكرىٰ
وَيَعودْ .
بابُ العامودْ
باعةُ كعكٍ بالسمسمِ

عَتّالونَ وأطفالُ مدارس
جدّاتٌ يَستُرْن الرأسَ بشالاتٍ سودْ.
لُغَةٌ عربيّة،
موسيقى العودْ.
وسِلالُ التّين المقطوفِ على ضوءِ الفجرِ
وعيدٌ لا يأتي في مَوْعِدِهِ
قلعةُ خوفٍ وبسالَهْ
سِحْرٌ يتأمَّلُ حالَهْ
أخلاطٌ مِنْ طِيبٍ
روحٌ للروحِ وعاصمةٌ للقلبِ
ووقتٌ لفتوحاتِ الخيلِ الأولى
يتعثَّرُ في وقتِ الدبّابة
كلُّ الصّلوات بِكلّ لُغاتِ السياحِ
المنهمكينَ بضبطِ الكاميرا.
خَدْشُ الرَّونَقِ في صوتِ الوحيِ
بضوضاءِ «الميراجِ».
سماءٌ عكَّرها شيءٌ غير الغيمِ
وأرضٌ فيها أسماءٌ سيئةٌ
بجوارِ الأسماءِ الحُسنىٰ.
والعشبُ النابتُ في الأحجارِ
نوافذُ تاريخٍ مَهْدودْ.
بابُ العامودْ
تطريزٌ فلّاحِيٌّ، وبساطيرُ جنودْ.

رشاش «العوزي» وهِلالُ مُحَمَّدْ
والحَرْفُ العِبريُّ ونجمةُ داودْ.
إكليلُ الشَّوكِ على دمعِ الأرابيسكِ الهادىءِ
فضَّةُ همْساتِ يهوذا
وقيامةُ روحِ المقتولِ المولودْ.
بابُ العامودْ
وَلَدٌ عَرَبيٌّ
وَلَدٌ لَمْ يعرفْ أحدٌ كيفَ تَلَبَّثَ مَسْتتراً
إلا حِينَ هوى الجنديُّ المُتَغطْرسُ
مدروزاً بعقابٍ فذٍّ
وانتشرَتْ رائحةُ البارودْ.

١٩٨٧/٤/٩

سيدتان

سَيِّدةٌ تعرفُ كُلَّ محلاّتِ الفِضَّةِ في باريسَ
وَتَشْكو.
سَيِّدةٌ تَبكي كُلَّ خَميسٍ في خَمْسِ مَقابِرْ
وتُكابِرْ.

١٩٨٧/٤/٢

تفسير

شاعِرٌ يَكْتُبُ في المَقْهى
العجوزُ ، ظَنَّتْهُ يَكْتُبُ رسالةً لوالدتِهِ
المُراهِقةُ ، ظنَّتْهُ يَكْتُبُ لحبيبتهِ
الطفلُ ، ظنَّهُ يرسمْ
التاجرُ ، ظَنَّه يتدبَّر صَفْقَة
السائِحُ ، ظنَّهُ يَكْتُبُ بطاقةً بريديّة
المُوظَّف ، ظنَّهُ يُحصي دُيونَهُ
رَجُلُ المَباحِث ، مَشَى نحوَهُ ببطء .

١٩٨٧/٣/١٩

مُقوّمات

الكوكاكولا، تشيزمانهاتن، جنرال موتورز،
كريستيان ديور، ماكدونالد، شِل،
دايناستي، هيلتون انترناشينال، سانجامْ
كِنتاكي فْرايدْ تشِيكن، الغازُ المسيلُ للدموع
والهراواتْ، والمَباحِثْ، . . .
قال ابنُ خلدونْ:
هذه مُقوِّماتُ الدَّولَةِ عِنْدَ العَرَبْ.

١٩٨٧/٤/١

أُمُّنا

تَوَدُّ الخُروجَ إلى كوكبٍ خارج الأرضِ
حتّى تُرَتِّب عالَمَها مِثْلما تشتهي .
فهذي البِلادُ، وهذي الحياةْ هُنا
جَعَلَتْ كلَّ أشواقِها مُعْجِزاتْ

* * *

تُريدُ لشهقةِ رائحةِ الثومِ في الظّهرِ
أنْ تجمعَ الغائبينَ
ويُدْهِشُها أنَّ بامِيَةَ الأُمِّ
أضعفُ مِنْ سَطْوةِ الحاكمينَ
وأنّ فطائِرَها في المساءِ تجفُّ
على شرشَفٍ لا تُنَطْنِطُ فيهِ الأيادي

وهل تسعُ الأرضُ قَسوةَ أنْ
تَصْنعَ الأمُّ فِنجانَ قهوتِها، مُفْرداً، في الصباحِ ؟
وتسألُ
هل يسع الدَّهرُ يوماً خُصومتَها للشَّتاتْ؟

* * *

تَودُّ الخروجَ إلى كوكبٍ خَارِجَ الأرضِ
حيثُ تعجُّ الممرات بالراكضين إلى غُرفةٍ مِنْ سِواها
وحيثُ الأسرَّةُ في الصُّبحِ فَوضى
وكلُّ المخدّاتِ تصحو مُجَعْلكةً
قُطْنُها غائصٌ في الوَسَط
تُريد اكتظاظَ حبالِ الغسيلِ
وأرزاً كثيراً كثيراً تُفَلْفِلُهُ للغَداءِ
وابريقَ شايٍ كبيراً كبيراً يفورُ على النارِ عصراً
ومائدةً للجميعِ ، مساءً، يُنقِّط مفرشَها سمْسمُ الثَّرثَراتْ.

* * *

تَودُّ الخروجَ إلى كوكبٍ خارجَ الأرضِ
حيثُ الفِطامُ حرامٌ
وحيثُ الطفولةُ تمتدُّ للأربعينَ
وحيثُ زواجُ البنينِ جميلٌ جميلٌ
ولكِنْ مشوبٌ ببعضِ الغَلَطْ!
وحيثُ الكنائنُ أخفضُ صوتاً
وأعلى امتثالاً
وحيثُ الجِهاتُ جميعاً تؤدي إلى مَرْفأِ الصَّدرِ

مِلْءَ خليجِ الذِّراعَيْنِ
تستقبلانِ ولا تعرفانِ الوداعَ
تريدُ من الطائراتِ الرجوعَ فقطْ!
والمطاراتِ للعائدينَ،
تَحُطُّ بها ثم لا تُقْلِعُ، الطائِراتْ!

* * *

تودُّ الخروجَ إلى كوكبٍ خارجَ الأرضِ
حيثُ الوطَنْ
سيحتاجُ دمعاً أقلَّ وموتاً أقلَّ
لكي تلمسَ الكفُّ أشجارَهُ
دون مؤتمرٍ دُوَلِيٍّ ودون حصارٍ
ودونَ اعتبارِ الطَّحِينِ مِنَ الأمنياتْ.

* * *

تَودُّ الخروجَ إلى كوكبٍ خارجَ الأرضِ
حيثُ تحدِّد أين المفرُّ وأينَ المقرُّ
وأين سَتدفِنُ موتَى المنافي
وتعرفُ في أي أرضٍ ستبكي
وعَنْ أيِّ قَبْرٍ تُدافِعُ حتَّى المَمَاتْ.

* * *

تَوَدّ الخُروجَ إلى كوكبٍ خارجَ الأرضِ
عَلَّ مياهَ الشَّرابِ
تصيرُ حقوقاً لها مثل باقي العِطاشِ

وحيثُ تُؤَمِّن قُرصَ الدّواءِ
بغيرِ التدخُّل مِنْ مجلسِ الأمن
أو علَّها تستطيعُ التحرُّكَ مِتْراً
لتجذب جثَّةَ جارتِها من زُقاقٍ صغيرٍ
بدونِ انهمارِ الرّصاصِ
يسدّ عليها جميعَ الجهاتْ.

* * *

تَوَدُّ الخروجَ إلى كوكبٍ خارجَ الأرضِ
علّ هُناكَ مِنَ العَدْلِ ما سوفَ يمنحُها
بضعةً من قُلوبٍ لتَحْمِلَ هذا العذابَ
الذي لم يُوَزَّعْ بعدلٍ على الكائناتْ.

* * *

تَوَدُّ الخُروجَ إلى كوكبٍ خارجَ الأرضِ
لكِنْ هيَ الأرضُ يا أمُّ، ما مِنْ سِواها لنا
ولنا أن نعيشَ هُنا، هكذا، مثلَنا
مثلَ مَنْ لاحَقُوهُ طويلاً
وما عادَ مِنْ مخرجٍ عندَهُ غير أنْ يستديرْ
واقفاً
في مُواجهةِ الهَوْلِ كي يتدبَّر أمرَ النجاةْ

* * *

تودُّ الخروجَ إلى كوكبٍ خارجَ الأرضِ
يا أمُّ لا كوكبٌ، غير هذي الحياةْ.

١٩٨٧/٣/٢١

مَوْج

تَعودينَ من عَمَلِ اليومِ
مُجهدةَ الجسمِ والرُّوحِ مِثلي
ونغتابُ عالَمَنا في هدوءِ الغداءْ.
وتمضي الشواغلُ، درسُ الصغيرِ
انقطاعُ المياهِ، اختفاءُ الكتابِ الذي
نتبادَلُ فيه القراءةَ
تدبيرُ أمرِ العشاءْ.
مشاكِلُ جارٍ سخيفٍ
وتهنئةٌ للصديقِ المُشاغِبِ
بعد ثُبوتِ براءَتِهِ في القضاءْ.
ونسرقُ تِسعةَ أعشارِ قُبلتنا بينَ
غَسْلِ الأواني، وإعدادِ شايٍ لضيفِ المساءْ.

وفي آخرِ الليلِ
يرتطمُ الجسمُ بالتَّعَبِ المستطيلِ
تقولين لي
«طابَ ليلُكَ يا صاحبي»
وأتمتِمُ مرتبكاً
«تصبحين على ألفِ خيرٍ»
ونطفيءُ مصباحَنا، في امتثالٍ لأمرِ النُّعاسِ الذي نشتهي
ثُمَّ
يرفعنا الموجُ من يومِنا كُلِّهِ
فيبعثر عنّا ملابسَنا في جميعِ الزوايا
ويرمي بأجسادِنا في هياجِ العِناقْ.

١٩٨٧/٣/١٥

مَدْرَج

هو مَدْرَجٌ للطّائراتِ
يظلُّ يحشدُها بِعَزْمٍ صاعدٍ، مُتصاعدٍ،
حتى تطيرْ.
حرٌّ مُضاءٌ بالنَّدى والنُّورِ صُبحاً أو مساءً
ليس يُثْقِلُهُ الثَّقيلُ،
ولا تخافُ فضاءَه فِرَقُ العَصافيرِ الصغيرةِ.
مُلْتَقَى كلِّ الجِهاتِ ومُلْتقى البَهجاتِ، راحلةً وعائدةً،
رقيق في مُلامسةِ التعلُّقِ بالحياةِ،
كأنّما صاغوهُ مِنْ زَغَبِ الكتاكيتِ الوليدةِ
والحريرْ.
لكنّما. . .
بالأمسِ،

حطَّمَتِ الرياحُ عليهِ طائرةً
وغَطَّتْهُ الحرائقُ والرُّكامُ
وَحُوِّلَتْ عنهُ المباهجُ كلُّها
مُذْ ذاكَ، أصبحَ مثلَ
رُوحي.

١٩٨٧/٣/١٣

أبو مُنيف

أدركْتُهُ
وكأنَّهُ، مُذْ كانَ، لم يَفْجع بمخلوقٍ سواكْ!
الموتُ فينا منذ آدم يا أبي
عَمَمٌ وعاديٌّ تماماً
كيف باغَتَني، إذَنْ، حتى العِظامْ؟

* * *

يا للسذاجةِ
هل وَهِمْتُ، كأيِّ طفلٍ، أنَّ سحراً ما
سيستثنيكَ ممّا ليس يُستثنى
وأنَّ الكونَ مبنيٌّ بحيثُ تكونُ فيهِ على الدَّوامْ؟

* * *

خَلَّفتُ خلفي نصفَ ما في العمرِ من عمرٍ

ونصفَ النَّفي، نصفَ الليلِ
حين تَلَعثمَ النّاعي
وأجرحُ ما يكونُ النعيُ لعثمةً
وأفصحُ كلما انكسر الكلامْ!

* * *

صوتٌ يرقُّ على مياه مخاوفي كذوائبِ الصفصافِ
محنيٌّ بوطأةِ ما يحاول أنْ يُخبِّيءَ أو يذيعَ
كأنّما الناعي يحاول مستحيلاً
مثل تحميل الحديد على غمامْ.

* * *

ولَكَمْ خُذِلْتُ وقد تيقَّنَ أنَّهُ حتى
حنانكَ
لم يردَّ الموتَ عنكَ
وأنَّ حُبَّ الناسِ حولَكَ
لا يقي حتّى مِن الموتِ البسيطِ
كأنَّ فيَّ جهالةَ الطفلِ الذي
عَجَنَتْ أصابعُهُ قوانيناً من الصَّلْصالِ
حَسْبَ هَواهُ:
يَدْخلُ في البِدايةِ ثم لا يرضى بأسبابِ الخِتامْ!

* * *

وتموتُ في المنفى
ومِنْ منفى سواهُ
يطيرُ وَحْشُ النَّعيِ

مِن منفى إلى مَنْفى وتبتعدُ البِلادُ
بخبزِها وجِرارها ومنمنماتِ العشبِ في
أسوارِها،
بهشاشةِ القَمرِ الذي يسري بأخضَرِهِ
على صبَّارِها
ونَدىً على تينٍ على غصنٍ على شجرٍ
تلاعبهُ العصافيرُ المُصابةُ بالغَباءِ فلا
تكفُّ عن الرَّحيلِ ولا تُحِسُّ بضَيْعةِ الأوطانِ مثلَ الناسِ!
تبتعد الطوابينُ القديمةُ
والمسامرةُ الحميمةُ في المضافاتِ
التي اعتادَتْ عَلى شَتْمِ المُلوكِ على الحَصيرةِ
والتلفُّتِ من قبيلِ الاحتراسِ
وخشيةِ الواشينَ
تبتعدُ الدموعُ الغامضاتُ على لِحَى الآباء
وَسْطَ مباهجِ الأعراسِ
تَبتعدُ الأهِلَّةُ والقِبابُ الدَّاكِناتُ
وقوّةُ الآلامِ في الأنفاسِ
تبتعدُ القُرى بطرازِها القوطيِّ
والساحاتِ والأقواسِ
تبتعدُ الحكاياتُ التي كَذَبَتْ على نَعَسِ الصّغارِ وقد
تمادوا في النعاسِ
وفي اشتهاءِ الأكلِ والطاباتِ
تبتعدُ القُرى بالناسِ إذْ يتحايلونَ على المآسي

بالتلاقي في المآسي،
يجعلون الحزن أرشق من مشاتِلِ حقلِ كمَّثرىٰ
تَفَضَّضَ في الظلامْ.

* * *

وتموتُ في المنفى
كأنَّ الأرضَ لم تَطلُبْ بنيها
أو كأنَّا لم نُطالِبْ مثلَما شاءَتْ
ولم نُعطِ الذي قَصَدَتْ
فهل تَعِبَ المُطالِبُ يا أبي
أمْ صارَ هذا الحقُّ قطرةَ زئبقٍ
فتشاجَرَتْ كلُّ الأصابعِ فيهِ
وابتعدَ المُتاحُ عن المرامْ؟

* * *

صيحاتُ غربتِنا تُوزِّعُ جمرَها
وتعود أبردَ من صقيعِ اللّيلِ
حين يشفُّ شاهدةَ الرُّخامْ

* * *

والليل حولي لا يمرُّ
وليس حولي من يُواجِعُني ويَكْذِبُ (صادقاً)
من أجل روحي
أو يلومُ هشاشتي حتى ألومَهْ!
أما المسافةُ بين أحبابي وبيني
فهي أقبحُ مِنْ حُكومة!

وعليَّ تفسيرُ العلاقةِ
بين أعلامِ البلادِ وبين خوفي
وعليَّ تفسيرُ انتصارِ «القصرِ»
حين يحولُ بين دموعِ أمي الذاهلاتِ
وبين كِتْفي!
بين قهرٍ بعضُ وطأتهِ كظلفِ الكَركدنِّ
على رفيفِ القلب في قلبي
وبين نُباحِ كلِّ نجومِ نصف الليلِ خلفي!
بين داءِ البرلمانِ وبين شكل الاقتصادِ
وبين أنْ لا يلتقي نِصفي بنصفي!
كَمْ سأهزِمُ من ملوكٍ يا أبي
حتى تمرَّ على جبينكَ لمسةٌ من طَرْفِ كفِّي!

* * *

فاذهبْ وحيداً يا أبي
إذهبْ إلى منفاكَ مِن منفاكْ
إذهب إلى قبرٍ غريبٍ عن قبورِ بلادِنا
واصعدْ مقدِّمةَ الجنازةِ مُفرداً
ولتنتظرْ أمّي تعازي الإبنِ والغُرباءِ
مع ساعي البريدْ!
واعلَمْ بِأَنَّا لنْ نُمَكَّنَ مِن وداعِكَ يا أبي
فَلِمِثْلِ هذا اليومِ لا لسواهُ
ترتفعُ الكفاءَةُ في مخافرنا
وتسهرُ كلُّ عينٍ في الحُدودْ

ولمثلِ هذا اليومِ ، لا لسواهُ
يشتدُّ التنافسُ في وزاراتِ الدفاعِ
على احتلالِ مُنَمْنَـاتِ الروحِ في روحي
وينتصرونَ، في زهوٍ، على قبرِ الفقيدْ.

* * *

لا حقَّ لي في الحُزنِ
لكنّي مُحِقٌ في الغَضَبْ
لا ، ليس حزناً ما يُرَجْرِجُ زَيزَفونَ الروحِ
بل غضبٌ أراهُ مُشخَّصاً وله قَوامْ.

* * *

فاذهبْ وحيداً يا أبي
واتركْ لنا هذي العجائبَ والخلائِطَ
لا تَقُلْ شيئاً
فإنَّ الموتَ في المنفى اتّهامْ.

بودابست ـ ديسمبر/١٩٨٦

البنفسج

كُلَّما انطبقَ العقربانْ
كُلّما ارتفعَتْ شاهِدة!
نَحمِلُ العمرَ عبر امتداد المكانْ
صرخةً، عرقاً، قلماً، طلقةً، شهقةً ثمَّ
ترتفعُ الشاهِدة!
ثم نمضي
وتبحث عبَّادةُ الشمس عن شمسِها من جديدْ
هيَ الأرضُ تُكْمِلُ دوراتِها
والقصيدةُ تُكْمِلُ أبياتِها
والطريقُ
على جانبَيْها القصائدُ والموتُ
فيها البروقُ التي تتوهَّجُ

فيها الجُموعُ التي تتدرَّجُ في مرتقاها العسيرِ
وفيها البنفسجُ
مِنْ نَقْشَةٍ في قماطِ الوليدِ إلى الشاهِدة.

١٩٨٠/١١/٣٠

كلاشنكوف

كَمْ عَدُوّاً ينتوي شَرّاً بكَ الآنَ
وكمْ موتاً يريدُكْ؟
كمْ مِنَ العتْماتِ تُخفي أمرَها كي تتّقيكْ؟
كم فتًى أعطاكَ ما في الكفِّ من روحٍ
وما في الروحِ من لمسٍ وماتْ؟
كَم مِنَ الأنهار والأحراشِ والشطآن والوعر افتديت؟
كَم تَملْمَلْتَ على كِتْفِ الحَرَسْ؟
كَم عَروساً رافَقَتْ طلْقاتُك الجَذْلى إلى بيتِ الزغاريدِ
وكمْ مَيْتاً لنا ودَّعتَهُ حتّى السماءْ؟
كَمْ مِنَ الأحلامِ والأشكالِ والأسماءِ زانَتْ أَخْمَصَكْ؟
كم مُغَنٍّ تاجَرَتْ كفّاهُ فيك؟
كم فضحتَ الخُطْبَةَ العصْماءَ في مِتْرَيْنِ من أرضٍ

تنادي : لن يمرّوا؟
كم رضيعاً سوفَ تحمي عندما تأتي جنازيرُ العدوّ؟
كم رضيعاً سوف تحمي عندما تأتي جنازيرُ العَرَبْ؟
أيّها المكروهُ مِنْ كلّ الكراسي
أيها المطرودُ مِنْ كلّ البِلادْ
عِمْ صَباحاً!
أنتَ تدري كَمْ يدٍ بينَ مُحيطٍ وخليجٍ
تَشْتَهيكْ!

١٩٨٧/٣/١٥

الغائب

في ذهول المغيب
شارعٌ يتقاطَعُ مع زُرقةِ البحرِ
سيدةٌ تقطعُ الشارعَ
المتلاطمَ بالمارةِ المسرعينَ وبالريحِ
تدخلُ مكتبةً ثمّ تَخرجُ دون كتابٍ
تحدِّقُ في العابرينَ جميعاً، ولكنّها
لا تراه.
وتفحص حشداً أمام محلّ الفلافِلِ، لكنّها
لا تراه.
تميلُ إلى مكتبٍ للبريدِ
وتستوقف اثنين في لهفةٍ
ـ أعذُراني، ظننت بأنّك...

تخرجُ من كل بابٍ وتدخلُ كلَّ زُقاقٍ ولكنّها
لا تراه.
«كم الساعةُ الآن»، تمشِي وتمشي
تُفاجَأُ بالبحرِ
يعلو ويهبطُ في ظُلمةٍ هَبَطَتْ فجأةً
وقليلٌ مِن المسرعين يشدّون ياقاتِهِمْ
«هل أعود إلى البيت»؟
«كم سنة سوف أبحث»؟
لا بد لي أن أراه، فما زال حيّاً
ولكنها نَظَرَتْ للبيوتِ البعيدةِ مغمورةً بالمصابيحِ
وانفجرتْ بالنحيبْ.

بيروت/ ابريل/ ١٩٨٢

لـو

ـ لو نَجَحَ «سيزيف» في رفع الصخرةِ
لنسيناه!
ـ ما أتعسَ ليلي
لو كان قيس حقاً بحاجةٍ للنار!
ـ أيُّ فَشَلْ
لو وَفَّقَ اللهُ المُتَنبّي في أنْ يُعَيَّن والياً!
ـ لو كان «لير» راجحَ العقل
لو كان هَمْلِتْ حاسماً
لو نجا عُطيل من دسيسة إياجو
ولو تزوجَتْ جولييت من روميو
ماذا نصنعُ بشكسبير؟
ـ فَقَطْ
لو كان للحقيقةِ
قُوَّةُ الإشاعة!

١٩٨٧/٣/٢٠

فصيح

ينتوي شراً ولا يقوى عليهْ
ويرى خيراً ولا يمضي إليهْ
إننا نعرفهُ في حالتَيْهْ
بُؤسه يختبىءُ الآن وراء الكلماتِ الباسلةْ
في ضجيج المهرجانْ.

فبراير ١٩٨٠

قبل الأوان

إلى أمل دنقل ونجيب سرور ويحيى الطاهر عبدالله

كلُّ مَيْتٍ قتيلْ!
كل موتٍ جريمه!
حَسَنٌ يا فتى
هذهِ حِصَّتُكْ،
غرفة ضيّقة
والردى يتزاحم فيها مَعَكْ
في مآقيكَ لؤلؤةٌ لا تُرى
في يديك الهواءْ
لا يداويكَ طِبٌّ
وأنتَ لقومِكَ بعضُ الدواءْ.
هكذا ينتهي من عَصَى
مُفْرداً كالدعاءْ.

عارياً كالحصَى
هكذا ننتهي عادةً
هكذا ينتهي من يرى
يجفل النجم من قرعةِ الطبلِ
يصطكُّ بابٌ سميكٌ على طائرٍ
تُسرِعُ الشاحِناتُ التي هَرَبَتْ مِنْ رجالِ الجمارِكِ
يستعرضُ العسكريونَ عسكَرَهُمْ صاخبينَ
وهذي المدينةُ لم تدرِ أنك بين الملاءاتِ في وحشةٍ
وإلى وحشة مثلها ستغذّ الخُطى
حين يستقيظُ الرُّعبُ مِنْ نَومِهِ
حين لا يسمع الراكضونَ إلى عَتَباتِ المهالكِ
أجراسَنا
حين يمشي الهلاكُ إلينا
ونحسبُه شجراً ماشياً
حينما يصبح العمرُ لا خيرَ لا شرَّ لا بينَ بين
حين تخشوشنُ الرّوحُ أوجَ الصبا
حين تغدو الحياةُ كحفنةِ ماءٍ نحاوِلُ إمساكَها باليدينْ
قتيلٌ هو الحيُّ فينا
وميّتنا، ميِّتٌ مرتيْن.
هكذا ننتهي أيها اليافعُ الكهلُ
حتى اشتعال البديل
هي جرثومة في البلاد لها الحَوْلُ والطَّوْلُ
والكِلْمةُ الفَصْلُ واللّغزُ والحَلُّ

جَمْرٌ ويبتلُّ جِسمٌ وينحلُّ عُمْرٌ ويَنْسَلُّ
عَدْلٌ ويختلُّ أرضٌ وتُحتَلُّ
والسيفُ يُسْتَلُّ مِنْ أجلِ أعناقِنا
فلماذا المراثي إذَنْ؟
إغْضَبوا للقتيلْ!

١٩٨٣/٦/١٨

الخنزير

أملَسُ الجِلدِ، بَطينٌ وبطيءٌ وسميكُ الرَّقَبَة،
وثقيل الخطوِ
عيناهُ إلى الأسفلِ دوماً تنظرانْ
وَلَهُ خطمٌ غليظٌ ناتيءُ
ونخيرٌ كصريرِ العَرَبة،
كومةٌ مدْهِنةٌ حينَ ينامْ
وارتجاجٌ دبقٌ في لَحَظات الهَيَجانْ
كَونُهُ يبدأُ من وجبتهِ حتى حدودِ العَتَبة،
يحتسي قهوتَهُ الأولى على مَهْلٍ
ويختارُ حذاءً لامِعاً
وقميصاً ذا نقوشٍ وخطوطٍ
ورباطاً شَجَرِيّاً للعُنُقْ

يرتدي بدلتهُ السمنيَّةَ اللَّونِ
ويحشو جيبهُ و «السامسونايتْ»
بنقودٍ وعقودٍ وعناوينِ العشيقاتِ
ويُلقِي نظرةً بين المرايا
يَسْكبُ العِطْرَ الفرنسيَّ على كفَّيهِ والخدّيْنِ مَرَّاتٍ
ويمضي . . .
مُغلِقاً بابَ . . . الحَظيرَة .

١٩٨٢/٣/٢٦

الحظيرة

المَمَرَّاتُ من المرمرِ
والقاعاتُ ضوءٌ ومرايا،
السجاجيدُ من الحائطِ للحائطِ
والأرضُ رُخامْ!
تُحَفٌ من كلِّ فَجٍّ وُزِّعَتْ بين الزّوايا
والحشايا من حريرٍ
حشْوُهُ ريشُ النعامْ
كُتُبٌ تلمعُ في أغلفةِ الجلدِ السميكة،
إسمهُ بالأحرفِ الأولى عليها
وعلى كلِّ أداةٍ للطعامْ
يجثمُ اللونُ، حشيشياً على المَقْعدِ
فضّياً على المسندِ

محمّراً على الموقِدِ
مصفرّاً على طول الأريكة،
وعلى الحائطِ تبدو صورةُ الخنزيرِ كالبدرِ التَّمامْ
ضاحكاً والدرُّ منثورٌ أمامَه،
بينما ينسدلُ المخملُ فوق النافذة
فاصلاً بين الحظيرة
والشوارع.

١٩٨٢/٣/٢٦

زوزو

إنتهازيٌّ يحبُّ الذهابَ للسينما
اتَّخَذَ مقعدَهُ واستعدَّ للمُشاهدة.
قَبْل الفيلم الرّوائيّ،
عَرَضوا فيلماً قصيراً من أفلام الرسوم المتحرّكة.
البطلُ المصنوعُ من الصلصالِ «زوزو»
يسير راضياً مرضيّاً في طريقٍ مُستقيمْ.
فجأة
يقطع صَفيرَهُ الجذلَ، ويقفْ.
ويحكّ رأسَهُ بطرفِ سبّابتهِ، ويفكِّر،
فقد تفرَّعَ الطريقُ المستقيمُ إلى شعبتيْن
يميناً ويساراً،
واحتارَ «زوزو» طويلاً أيّ الطريقين يسلك

وأخيراً، توصّل إلى حلٍ مناسبٍ
شَقَّ جسمَهُ نصفيْن!
وسار نصفُه الأيمنُ في الطريقِ الأيمن
وسار نصفُهُ الأيسرُ في الطريقِ الأيسر
واستأنف صَفيرَهُ الجذل بنصفِ شفتيهِ هُنا
وبنصفِ شفَتيهِ هُناكْ.
وبعد قليل. . . . . .
تلتقي شُعبَتا الطريقِ معاً ويستقيمُ مرةً أخرى.
هُنا،
يحاولُ زوزو أن يضمَّ نصفَيْ جسمهِ ليتّحدا كما كانا في السابق
ولكن النِصفيْن لا يتطابقان!
يحاولُ مِراراً وتكراراً، بلا فائدة،
ومِن جهات الشاشةِ كلِّها تتقافزُ حروفٌ من الصَّلْصال
مُشَكِّلةً كلمةَ: «النهاية».

١٩٨٧/٣/١٨

في القلب

في الكونِ كواكبْ
في الكواكبِ الأرضْ
في الأرضِ قارّات،
في القارّات آسيا،
في آسيا بلاد،
في البلاد فلسطين،
في فلسطينَ مُدُن،
في المدنِ شوارع،
في الشوارعِ مُظَاهرة،
في المُظاهرةِ شاب،
في صَدْرهِ قَلْبْ،
في قَلْبِهِ رصاصة.

ابريل/ ١٩٨٢

صورة

سماءٌ زرقاء،
غيومٌ بيضاء ورماديّة
شوارعُ ممتدة، متقاطعة، منحنية
تتأرجح بينها الشّعاراتُ
حمراء زرقاء صفراء خضراء، متضاربة،
بيروتُ في الضُّحى،
وأمام مدخل البنايةِ ذاتِ الطوابقِ السبعة
تقف عربةُ نقلِ المَوتى
وبداخِلها شيخان -
بلحيتين كسولتيْن -
استغرقا في النومْ.
سائقُ العربةِ يدورُ حولها بنفاذِ صبر.
في شرفة الطابق الأول من البناية
شابان بملابسَ عسكرية.

في الشرفةِ الثانية
رجلان يلعبان النَّرد.
في الشرفةِ الثالثة
صبيّةٌ تنفضُ سجادةً قديمةً
بمضْرب الخيزرانْ
وبين ضربة وأخرى
تتقي بيدها اليُسرى
غيمة الغبار
في الشرفة الرابعة
سيدة تنشر أقمطةً بيضاءَ على حَبْل الغسيلْ.
في الشرفة الخامسة
ولدٌ ينطِّطُ طابةً ملوَّنة.
في الشرفةِ السادسة
لا أحدْ
في الشرفة السابعة
حشدٌ من النساء.
فجأةً يطلُ الولدُ ـ مضطرباً ـ من الشرفة الخامسةِ
يداه تمسكان الإطارَ الحديديَّ
وعيناه تلاحقان في هلعٍ ولهفةٍ
طابته التي راحتْ تتدحرجُ في عرضِ الشارعْ،
حيث ما تزال عربةُ نقلِ الموتىٰ
تنتظرُ نزولَ التابوتْ.

بيروت ـ ابريل/ ١٩٨٢

الطائر

تَقْرَعُ البابَ على الأهلِ
وفي صدركَ طيرٌ
ينقر الأضلاع ملهوفاً
جناحاهُ يرفّانِ
استباقاً لانفراجِ البابِ.
هذي لحظةٌ للّمسِ والألفَةِ
تدنو
قَفَزَ الطائرُ مِنْ صدركَ حتى
مقبضِ البابِ
وريشُ الطَّوقِ لا يحتمل التَّوقَ
فيهتزُّ
تتوقُ الآن كي تلقى الذينَ

انتظرتْ عيناك أن تبصرَهُمْ عاماً فعاما،
هدّك البعد
وكانت سنواتُ النأي أقسى من قُرونِ الوَعْلِ
أو ليل اليتامى
ويرفُّ الطائرُ المُمْسِكُ بالبابِ
ووقع الخطو يدنو،
تقفُ الآن على الحدِّ الذي يفصلُ وقتينِ
وتُصغي :
لمسةُ المفتاحِ تسري في شراييِنكَ
رجْفاتٍ
يدور المعدنُ الداخلُ في المعدنِ
يعلو الطائرُ الأبيضُ للسقفِ
يسميها سماءً
ويصير اللّونُ لوناً ويصير الجسمُ جِسماً،
ويصير العُمر عُمراً
ويصير الذمُّ في الدّهر اتهاما.
بَانَ خيطُ الضوءِ في الحافَّةِ
وانزاح قليلاً ثِقَلُ البابِ
تنفستَ
وكاد الطائرُ الراعشُ يبكي . . .
يُفْتَحُ البابُ
وصوتٌ باردٌ يهمس : لا يا سيّدي ـ كانوا،
وراحوا مِنْ زمان.

كانتِ الصحراءُ خَلْفَ الباب كُثباناً ورملاً يترامى ،
وبصمتٍ كَوَّمَ الطيرُ جناحيهِ وناما
وببطءٍ ، أُغلِقَ البابُ ،
مشيتْ . وتوقفتَ قليلاً والتفَتّ :
أيّها الطائرُ في الصدرِ وداعاً
أيّها الأهلُ . . سَلاما .

فبراير / ١٩٨٠

الترويض

تَغَيَّرْتُ
مِنْ بعض قَرنٍ إلى اليومِ
ما عُدتُ نفسي .
قَطَعْتُ المسافةَ بين ابتدائي وبين انتهائي
بغمضةِ عُمْرٍ
وما أَغمَضَ الراكضونَ ورائي
وكان اشتهائي فضاءً
ولكنّني سِرْتُ نحو الشِّراكْ!
أنا الشجرُ المشرئبُّ إلى مَطْلعِ الضوءِ
جُنَّتْ عليَّ العِصيُّ الطويلةُ
تضربُ أعْضائيَ الخُضْرَ عاماً فعاما
فتسقِطُ عني خِصالي وأوصافَ قلبي ،

الا تستطيعُ التلاقي بنفسكَ
إنَّ المرايا تكذِّبُكَ الآنَ،
لا أنتَ ذاك العفيُّ
المزنَّر بالشمسِ
والمتلألي ءُ - كالبحرِ عند الشروقِ -
ولا أنتَ كالصورةِ المطمئنَّةِ في صفحةٍ في الهوّيةِ
كلُّ ملامحكَ الآن مسلوبةٌ
والمواعيدُ زائغةٌ من خُطاكْ
كأنك تركضُ بين الإطاراتِ ترتدُّ داخل اسمنتِها الدائريِّ
فمن أين تخرجُ؟
هُمْ حدَّودكَ كَأنَّ الفراغَ حواليكَ سورْ،
وقَدْ حاصروكَ كأنَّ الخلاءَ حواليكَ يومُ النُّشورْ،
وقد أفردوكَ كأنَّ البلادَ خَلَتْ مِنْ سِواكْ!
وما زلتَ تستهجِنُ الحادثاتِ
وتبكي
كطفلٍ نجا بعد موت ذويه.
وتسمع عبر المسافاتِ من غابةِ الناسِ صوتاً
تصيح: «هو الصوتُ»!

لكنما
يجـــيءُ مُروِّضُكَ المتبرِّجُ
بالسوطِ والسُّكَّرِ الماكرِ الطعمِ
والزركشاتِ المضيئةِ
في ضجةِ العازفينَ
وفي بهجةِ المذبحة:
على عُنُقِ النّمر سلسلةٌ من ذَهَبْ!
على لبدة السبعِ شالُ الحرير!
على قَدَم الفهدِ خلخالُ فضّة!
تساقطت الآن كلُّ الصفاتِ عن الوحشِ
إذْ أتقَنَ الركضَ بين الإطاراتِ
حتى تَمَكَّنَ هذا المُروِّضُ أنْ يعتليه.
فما عادَ في قاعةِ الضوءِ وَحشاً
وإنْ عادَ للغابِ
أضحى فريسةَ مَنْ يشتهيه!

* * *

تغيرتُ
رُوِّضْتُ
مِنْ بعض قرنٍ إلى اليومِ
ـ لَمْ اكتهلْ ـ
غير أني أضعتُ معاني صبايْ
تساقَطَتِ الآن عنّي خِصالي وأوصافُ قلبي
فبتُّ أرى في المرايا سوايْ

وأَسْتَهجِنُ الناطقينَ بإسمي
وأبكي
كشيخٍ نجا بعد قتلِ بنيه!
وما زِلْتُ أسمعُ صوتَ المُروِّضِ
مبتهجاً
وتعاليمُهُ مُستجابة
يُروِّضُ وَحْشاً
فيحرقُ غابة!
وما زِلتُ أسمعُ مِنْ شَجَر الناسِ
صوتاً
يحاولُ
أنْ
يقتربْ.

فبراير/ ١٩٨٠

المقْلاع

يا ليتني طفلٌ
وفي يمناي مقلاعٌ مِن المَطّاطِ
أرشقُ حصوتي نحو المدينةِ
كي أُصيبَ غرورَها العالي فتهبط
في جواري .
ثم أمسحُ ريشَها وأضمُّها
كحمامةٍ
في راحَتَيْ
لكنَّ أسرابَ الحمائمِ تختفِي إذْ اقتفيها
أين أذهَبُ
لستُ طِفلاً، لستُ صياداً
ومقلاعي يردُّ حصاهُ من كَفّي

إليّ .
وأكاد أهمسُ
يا بلاداً لم تلملمني هناكَ وبعثرتني
في تجاعيدِ الخرائطِ
حالةً كالغيمِ تخذلُه البروقُ
يظلُّ مرتحلاً يتوقُ
شوارعُ المنفى البعيدِ عَصِيَّةٌ
وعصيّةً كانتْ شوارعُنا الأميرةُ
نحن سابلة الرصيفِ ونحن ملصقها المؤطَّر بالسوادِ
بكل زاويةٍ وحيّ
قد صار خصمي فيَّ يا أمّي
وأصحابي عَلَيَّ .

١٩٨٠

دقائق

● ـ الباب الذي يأتيك منه الريحْ
إفتحْهُ لتستريحْ !

● ـ العازفُ يأتمرُ بأمر قائدِ الأوركسترا
قائد الأوركسترا يأتمر بأمر المؤلف
المُؤَلِّف يأتمرُ بأَمر الحياة
الحياةُ هى الأمر!

● ـ جَمالُ المَرأةِ لا يُرى
إنّهُ يُكْتَشَفْ.

● ـ صَدَقَ البَعضُ معَ البعضِ فَلَمْ يَتّفِقوا
بعد عامٍ
كَذَبَ الكلُّ على الكُلِّ وحَلُّوا المُشكِلة!

● ـ التنقيطُ المنتظمْ من الصنبورِ التالفِ في رُكنِ العنبر
كاد يُفقِدُ السجينَ صوابَهُ

بعد شهرٍ
عندما جاء السبّاكون لإصلاحهِ
صاح بهم:
أتركوه يُنَقِّطْ.. أرجوكُمْ.

١٩٨٧/٣/٢٠

أنتِ وأنا

إلى رضوى عاشور

أنتِ جميلةٌ كوطنٍ مُحرَّر
وأنا مُتعبٌ كوطنٍ محتلّ.
أنتِ حزينةٌ كمخذولٍ يقاوِمْ
وأنا مُستَنْهَضٌ كحربٍ وشيكة.
أنتِ مشتهاةٌ كتوقفِ الغارة
وأنا مخلوعُ القلبِ كالباحثِ بين الأنقاضْ.
أنتِ جسورةٌ كطيارٍ يتدربْ
وأنا فخور كجدَّتهِ.
أنتِ ملهوفةٌ كوالدِ المريضْ
وأنا هادئٌ كممرضة
أنتِ حنونةٌ كالرذاذ
وأنا أحتاجُكِ لأنمو.

كلانا جامحٌ كالانتقامْ.
كلانا وديعٌ كالعَفْو.
أنتِ قويةٌ كأعمدةِ المحكمة
وأنا دَهِشٌ كمغبونْ.
وكلَّما التقينا
تحدثْنا بلا توقفٍ، كمُحاميَيْن
عَنِ العالَمْ.

٨٣/٥/٢٦

أَيْقِظوه

أيقِظوا حُزْنَكُمْ، أيقِظوه!
أيقِظوا حزننا!
أوقِفوهُ على قدميهِ
اسندوهُ وهزُّوهُ في قَسْوةٍ
أو حنانٍ
خُذوهُ إلى الماءِ من نَوْمِهِ
واغسلوا وجهَهُ
واحلقوا ذقنَهُ
شذِّبوا شاربَيْهِ
وهاتوا ملابسَهُ عـن علائِقِها
ساعدُوه لكي يرتديها
وقولوا لَهُ
لم يَعُدْ عندنا ما نقدمُه لكَ، قولوا لهُ
لم يعدْ عندكَ الآن شيءٌ لنأخذَهُ

أوصِلوهُ إلى البابِ في قسوةٍ أو حنانٍ
وقولوا لهُ نِمْتَ فينا طويلاً
تُشيعُ البرودةَ في الرُّوحِ ،
تُلْهي الصبيَّ عن اللهوِ، تلهي العجوزَ عن
الثَّرثَراتِ
وتُلهي الفتاةَ عن الإنحرافِ الجميلِ
تشاغلُنا بالكثيرِ القليلِ
تُشوِّشُنا بالخطيرِ الهزيلِ
تشلُّ أصابعَنا ثم تغفو،
وقد نِمْتَ فينا طويلاً
وهذا أوانُ الرَّحيل!
ادفعوه إلى خارج البيتِ في قسوةٍ
أو حنانٍ . . . . . .
. . . إذا ما استطعتُمْ!

* * *

دعوا العينَ تُبصِرْ مسافاتِنا
ثم عودوا إلى أيِّ شيءٍ
إلى غضبٍ «صار يُضحِكُ شيئاً فشيئاً»؟

وعودوا!
مطاريدَ يخشونَ أنْ يُمعِنوا في السعادةِ
أو في الشّقاءْ
لهمْ نُبْلُهمْ هاربينَ من اليأسِ والإغتباطِ
ويمشونَ في طُرقِ الانقراضِ إلى ساحةٍ للبقاءْ.
اجفلوا مثل عصفورةٍ
لم تَجِدْ مَطْرَحاً في الغصونِ ولا في السماء!
اجفلوا واذهبوا حيث كُنْتُمْ:
جَمَالاً يُخالِفُ كلَّ القوانينِ كُنتمْ
مهدَّاتِ هَدْمِ الأليفِ
ورَجْرَجةً في زوايا السقوفِ
وتستخرِجون «عَلَى مَهلِكُمْ» طائعاً من عَصيٍّ
وترمونَ بالخوفِ وَجْهَ المُخيفِ.
أخرجوا مِنْ هنا واذهبوا حيث كُنتمْ. . . . . .
إذا ما استطعتمْ!

* * *

ومن عتمةِ القلبِ
عَبْرِ الرَّجاءِ المُهشَّمِ
سيروا تجاهَ الرَّجاءْ،
في الزمانِ المُريحِ ادخُلوا في التَّعَبْ
في الزمانِ الكسيحِ ادخُلوا في السباقْ
في الزمانِ الزجاجِ ادخلوا في الحجارةِ
عودوا لأحلى السذاجاتِ

«يسقطْ! يعيشْ!»
اجفلوا،
لا تلوموا الذي لا يُلامُ
ولا تَتْركوا الحُلْمَ يَرجفُ بَرداً
بهذا العراءِ فيَفْنىٰ . .
إذا ما استطعتُمْ
إذا ما استطعْنا!

١٣/يوليو/١٩٨٦

أضعُ اليدَ اليُمنى على الخدِّ الأيمنْ

مُمْسِكاً قَلَماً
والمساحَةُ مفتوحةٌ للقصيدةِ
(تبدو المساحةُ مفتوحةً للقصيدةِ)
لكنّني، بملامحَ هادئةٍ
لا تدلُّ على ضجةِ الموْجِ
أوْ رجَّةِ الرُّوحِ
أُدرِكُ أنَّ المساحةَ ضيّقةٌ،
كيف للبحرِ أنْ يدخُلَ الوَرَقَ الآنَ؟
فلتهدأ العاتياتُ قليلاً
لأسمَعَ صمتي وأرسمَهُ صورةً
للحبيبِ،
لحاصدةِ القمحِ مغمورةً بالسنابلِ،

للصندلِ المتآكلِ ،
والمنجلِ المتآكلِ ،
للدايةِ المتهلّلةِ الوجهِ،
للكفّ رافعةً حافّةَ النعشِ ،
للبصمةِ اللّيلكيةِ فوقَ العريضةِ،
للميجانا، يتوجعُ فيها الرُّعاةُ
ومَنْ يحرثون المواسمَ تصعدُ اصواتُهمْ
كزلازلَ ناعمةٍ في البراري ،
لطابةِ طفلٍ تنطُّ عن السِّلْكِ،
للقهوةِ المُشتهاةِ على شُرفةِ الجدِّ،
للمُلْصقِ الخارجِ الآن من جَسَدٍ
دافىءٍ للجدار،
لمالئةِ الماءِ تحت انهمارِ الرصاصِ ،
لطالبةِ الثانويَّةِ تُتقنُ حَرْقَ الإطاراتِ
والحبَّ والفيزياءَ
وتحفظُ من ذلك التونسيِّ الجميلِ :
«إذا الشَّعْبُ يوماً . . .»
وتحملُ في الراحةِ الروحَ،

للقامةِ المستقيمةِ تمشي إلى المستبدِّ وتدرزهُ بالقَصاصِ ،
وللرِّيشةِ المستقيمةِ في مرسمٍ مائلِ السقفِ،
للقصفِ نحو الحصونِ العدوَّةِ
للضاحكينَ من الرُّتَبِ المُضحكاتِ
لسورٍ يشققهُ الوقتُ والعشبُ
مالتْ مداميكُهُ، فتماسكَ حتى تماسكَ إلاّ قليلاً
أو انهدَّ فانهدَّ إلاّ قليلا.
هنا، من هنا
يطلعُ الذاهبونَ إلى مطلعِ الضوءِ،
من بيننا، يفتحون المغاليقَ
ميِّتُهمْ لا يموتُ، وغائبهمْ ليسَ يُفْقَدُ،
يحتملون صفات الزمان
حنونينَ، بينهمُ المتهاوِنُ
والجِلْفُ والمتطامِنُ في ثِقَل الظلِّ
والظرفاءُ
وبينهم الأنبياءُ الذين يقولونَ ما يفعلونَ
يخافونَ حيناً وحيناً يخيفونَ
يبتدئون ولا ينتهونْ.

* * *

طفلةٌ تتلَعثمُ بينَ ضيوفِ المساءْ،
حَدّثي يا «مها»
و «مها» لا تُحدِّثُ حيناً، وحيناً تُحَدِّثُ،
ثم تمدُّ أصابعَها للضفيرةِ، ساهمةً

و «مها» تُغلقُ الدفترَ المدرسيَّ
تشدُّ الغطاءَ وتطفىءُ مصباحَها وتنامُ
وفي الصفِّ ترهقُها حِصةُ الفيزياءِ
ولكنّها في اندلاعِ الظهيرةِ
تمشي بطولِ مظاهرةٍ
وتمدُّ أصابعَها للرصيفِ
وتعلنُ آراءَها في الجنودِ وفي النفطِ والإتفاقاتِ
تغدو «مها» ما لها غير لهجتها
ثم تغدو الفصاحةُ ذاكَ الحَجَرْ.

* * *

وَلَدٌ يُقْلقُ الوالدينْ.
والدٌ يكتمُ الاعتزازَ
ووالدةٌ لا تبوحُ بما يخلعُ القلبَ حينَ يغيبُ الوَلَدْ
وَلَدٌ وَلَهُ ولعٌ باللَّعبْ.
وَلَهُ وَلَهٌ بالكُتُبْ
وحينَ تُباغتهُ نظرةُ الجدِّ بالإرتيابِ
يخادعُهُ بالكَذبْ.
ناحلٌ، أجعدُ الشَّعرِ، في خَدِّهِ شامةٌ
وَلَهُ شاربٌ من زَغَبْ
وَلَدٌ،
حينَ عادوا بجثَّتهِ
كانَ في صدرهِ مخزنٌ من رصاصِ الجنودِ

وفي عينهِ نظرةٌ مِن عَتَبْ.

* * *

قَمَرٌ على القدسِ اشتهى
بنتاً أطلَّ على طفولتها بأزرقةِ المُفَضَّضِ
ثم ضاعتْ..
هل مضتْ كي تطلب الدنيا ـ فتطلبُها المباحثُ
تطلب التعليمَ ـ يطلبُها العريسُ
وتطلبَ الأطفالَ ـ تطلبها القذيفةُ
أم اصابتْ حِكمةُ القنَّاص جبهتَها
أم اخترعتْ طريق رجوعها في زورقِ المطّاطِ
فانفجرتْ جمالاً دامياً في العُشبِ؟
يا قمراً على حيفا
إذا أبصرْتَ عُشباً أحمر الأوراقِ
فاعلمْ يا جميل الوجهِ أنك تلتقينا

* * *

قمرٌ على عكا القديمةِ يشتهينا.
من أيّ عامٍ كان يعرفُنا صغاراً في الأزقَّةِ
لا نطيعُ الأهلَ، يزجرنا كِبارُ الحَيّ
عن لَعِبِ «البنانير» التي كانتْ لنا كنزَ الطفولةِ
بينما يتوجعُ القمرُ الذي ما كان يجهلُ من يبيعُ ويشترينا.
تركَتْ لنا الدنيا منابذها الشحيحةَ
والسماءُ هي السماءُ وأنتَ أنتَ ولا سواكْ!
وتدور

لكنا نراك على المخافرِ ـ لستَ أنتَ
على المشانقِ ـ لستَ أنتَ
وقد نراكَ تدور في روما التي لم تلتفتْ لدموعنا
ومساءِ باريس المخضبِ أو أثينا
لستَ أنتَ،
فما نسيتَ دم البنينِ وما نسينا
آه يا قمر البنانير الصغيرةِ
منذُ كَمْ عامٍ ونحنُ ندورُ حولَكَ
نشتهيكَ وتشتهينا!

* * *

ذَهَبَ الزمانُ بضوئكَ الرَّعَوِيِّ
منسكباً على ولدٍ وبنتٍ
يركضانِ على السنابلِ حينَ يكتشفانِ
نغْبشةَ المحبَّةِ في مسامِهما
وينتظرانِ غلّةَ موسمٍ، والخاتمينِ
ودبكةً ترتدُّ مِنْ أقدامِ صَفَّيِّ الرِّجالِ
إلى النجومْ
ذَهَبَ الزمانُ بضوئك الرَّعَويِّ
منسكباً على مولودةٍ في حضنِ والدةٍ
تُهدْهِدُها وتطعمها حليبَ الثديِ،
قد خَلَطوا المَشاهِدَ يا عتيقُ
وجاءَنا زمنُ المعاهدِ والمعاملِ
والولادةِ دونما ألَمٍ

ودايَتُنا/ القذيفةُ
أخرجَتْ من بطنِ فاطمةٍ وليدتَها
بلا ألَمٍ
مباشرةً على الأنقاضِ أرْدَتْها ممزقةً
بلا ألمٍ
فمرحى للكفاءَةِ وانقلابِ التكنولوجيا
أو لبئرِ النفطِ محمولاً بذيل الطائرة!

* * *

يباغتني «النقيضُ»
وقد أخافُ، وقد أصارعُهُ طويلا
ويظهر لي «القريب»
فاطمئنُّ
يمدُّ كفاً للسلامِ عَلَيَّ
يُتبِعُها عناقاً
ثم يتركنّي قَتيلا

* * *

طفلةٌ نائِمة،
إنهم يكملون الخِطابْ..
طفلة نائِمة،
إنهمْ يُتقنون الخِطابْ..
طفلةٌ نائِمة،
إنهم يكثرون مع الليلِ
أعينهم تتلصص من كل باب..

طفلة نائمة،
بعد كم ساعة سوف تصحو؟
بعد كم ساعة يبدأونَ
علاقَتَها بارتيادِ المقابرِ كلَّ خميسٍ
بباقة زهرٍ، وأسئلةٍ
مِن سذاجتها قد يُطلُّ الجُنونْ؟!

* * *

مثل شيخٍ تَعوَّدَ فَقْدَ البنينْ
ساهمٌ وطني، مُوغلٌ في السنينْ
كلُّ زيتونةٍ فيهِ تذكرُ زراعَها
كلُّ حَنّونةٍ فيهِ تعرفُ قاطِفَها
والمحاريثُ تعرفُ أثلامَها في الحُقولْ.
منذُ أن حَسَرتْ ماءَها عن مداهُ البِحارْ
وتجلَّتْ تضاريسُهُ:
رشَّةُ العِطرِ في زَفَّة العُرسِ
مِحرمَةُ الراقصينَ
وجُرْنُ المضافةِ، نقشُ الحصيرةِ
والصخرُ والنهرُ، والتربةُ التِبرُ
والموتُ والشِعرُ، والنِّدُ والوَغْدُ
والبَدُّ والحَصْدُ، والتينُ والزيتُ
والفِتيَةُ النُّبلُ، والنسوةُ الفُلُّ
والبائعُ النَّذْلُ، والسُّحُبُ الهُطْلُ
والحَبْسُ والذُلُّ، والسهلُ والتلُّ

يُغزى ويُحْتلُّ، لكنه واقفٌ
واقفٌ وطني
مثل شيخ تَعَوَّدَ في الحَرْبِ فَقْدَ البنينْ.
شامخٌ . . وحزينْ.

* * *

أضعُ اليدَ اليُمنى على الخدِّ اليمينْ
وأودُّ لو أني أرنُّ الصوتَ في الساحاتِ
لكني أُعيدُ يدي إلى ورقِ القصيدةِ
صامتاً
وكأنني الراعي وقد ضاقَتْ عليه «الميجانا».

١٩٨٢

طال الشتات

طالَ الشّتاتُ وعافَتْ خَطْوَنا المُدُنُ
وأنتَ تُمْعِنُ بُعداً أيها الوَطَنُ

كأنَّ عِشقَكَ ركضٌ نحوَ تَهْلُكَةٍ
ونحن نركضُ لا نُبطِي ولا نَهِنُ

يقولُ من لَمْ يجرِّبْ ما نُكابِدُهُ
كأنَّ أجمَلَهُمْ بالموتِ قد فُتنوا

ولو حَكى الموتُ بالفُصحى لصاحَ بنا
كفى ازدحاماً على كَفَّي واتَّزنوا

يهوي الشهيدُ وفي عينيهِ حيرَتُنا
هل ماتَ بالنارِ أم أودى به الشَّجَنُ

أشواقنا إن طواها الصدر باديةٌ
وقهرُنا في فم البارودِ مُخْتَزَنُ

لك اتجهنا وموج الحلمِ يجمعُنا
فبعثرْتنا على أمواجِها السُّفُنُ

ارجعْ فديتُك إنْ قبراً وإنْ سَكَناً
فدونَكَ الأرضُ لا قبرٌ ولا سَكَنُ

نحنُ مَنْ لَم نَمُتْ بعدُ
نملك أن نعتني بالخيامِ الجديدةِ
شهراً فشهرينِ عاماً فعامينِ
نألفُ قهوتَنا في الشتاتِ
ونصبو إلى مستحيلاتنا الخارقاتِ

كأنْ يكبرَ الطفلُ
أو يطعنَ الكهلُ في السنِّ
أو يلتقي غائبانِ وتلتئمَ العائلةْ.
نحن مَنْ لَمْ نَمُتْ بعدُ

نملك أن نتشاجر حول المعاني الصغيرةِ
معنى الغصونِ التي ظلّلتْنا
ومعنى الظِّلال التي ضلّلتْنا
ومعنى تفاصيلِنا المُحرِجاتِ
ومعنى تفاصيلنا الرائعاتِ
وجدوى المعاني الكبيرةِ
جدوى الجيوشِ وجدوى الحكوماتِ
جدوى النجاةِ من الموتِ،
جدوى السماءِ التي شاهَدَتْ كلَّ شيءٍ
وظلتْ، كعادتِها، عاقلة.

نحنُ مَنْ لمْ نَمُتْ بعدُ
نجترسُ الآن من هَفَواتِ اللسانِ
ونملك أن لا نبوحَ لمستقبلينا
بأنا نراهُمْ يعدّوننا، باحترامٍ، لمذبحةٍ مُقبِلةْ.

نحن مَنْ لمْ نَمُتْ
لَنْ نطيلَ العِتابْ
ولكنّنا حيث كنا على طولِ هذي البلاد الخَرابْ
ألوفاً، مئاتِ الألوفِ ملايينَ

في لحظةٍ واحِدة،
سوف نرفعُ أيدِيَنا للجباهِ، ونُطرِقُ
كي نتدبَّرَ شكلاً ليوم العقابْ.

نحن مَنْ لَمْ نَمُتْ بَعدُ
كم مرةً سوفَ نَرحَلُ، كم مرةً سوف
نحملُ ذاكرةً للشواهِدِ
تسطعُ فيها جميع المَشاهِدِ
يأمنُ بين يَدَيْها الشهيدُ الذي شكلُنا صوتُه
والذي غَدُنا بيتهُ
والذي صوتُنا صمتُه
والذي سوف ينهَضُ حين نواصِلُ
لكنه حين نهجرُ أوصافَنا سوف يقتله موتُهُ

أهذا صوتُكَ المخذولُ نادى؟ أم أنَّكَ قد يَئِسْتَ مِن المنادي؟
أم أنَّكَ في المدى آنست ناراً، وحين قَصَدْتَها حالَتْ رمَادا؟
لقد ودّعتَ يأسَكَ ذات يومٍ وكنتَ ظننتَهُ ولّى فَعَادا!
ووافَتْكَ الفواجِعُ في جُموعٍ وما رَحَلَتْ جموعاً أو فُرادى!
فهل دمك الموزع في بلاد سيترك كي يعيد لك البلادا؟
لقد خذلوكَ حياً ثم مَيْتاً بما خافوا انتباهك والرُّقادا
وبأسك لم يهزَّ لهم قناةً وقد هز المقابرَ والجَمَادا
فانت السيفُ فانبذْهُمْ غِماداً وأنتَ السقفُ فاجعلْنا عِمادا
ولا تُطِعِ القرابةَ في عدوٍ وعانِدْ من «تريدُ» لَهُ عِنادا
أعطني حِذاءَك أيها الشهيدْ
أعطِني نِطاقَك العسكري

أعطِني مَطَرَتَكَ الفارغة
أعطِني جورَبَكَ المُشبَعَ بالعَرَقْ
أعطِني نصفَ الصفحةِ المتبقي من رِسالةِ خطيبتِكْ
أعطِني ملابسَكَ المبتلَّةَ بالأرجوانْ
أعطني رشَّاشَكْ الذائبْ
أعطني نظرتَكَ الأخيرةَ، هاجسكَ الأخيرَ
شجاعتَكَ، تردّدَكَ، ندمَكَ
رغبتَكَ العابرةَ في الهربْ
قرارَكَ بالبقاءِ
رعشتَك عندما مزَّقت الطائرةُ رفيقَكْ
أعطِني دمعتيكَ اللّتَيْن لم يلحظْهُما أحَدْ
أعطني عنوان بيتِكَ في المُخيَّمْ
سوف أبحثُ بين بقيةِ البيوتْ
بين بقيةِ الناجينَ/عن بقيةِ عائلتِكْ
سوف أخبرهُمْ كم كنتَ وحيداً
سوف أحدّثهم عنكْ
سوف أعطيهمْ أشياءَكَ كلَّها
هذا إن لم يكونوا ماتوا في **المذبحة**.

* * *

كومةٌ من جُثَثْ
كومةٌ من قُلوبْ
كومةٌ من رُكامْ
كومةٌ من حَنينْ

كومة من تُرابْ
كومة من طُموحْ
كومةٌ من حَطبْ/نسوة صِبْيَةٌ وشيوخٌ حَطَبْ
جثةٌ لحصانٍ يحاول إتمامَ شُرْبَتِهِ
أم تُرى. . جثةٌ لخيولِ العَرَبْ؟
كومةٌ من سقوفْ
كومة من عَلاقاتِ عمرٍ تضيعْ
كومةٌ من قماطاتِ طفلٍ رضيعْ
أين جثّتُه وَسْطَ هذا الحُطامْ؟
أين تلك التي اختارتِ الإسمَ واحتفلتْ «بالسُّبوعِ»
وحين بَكى أَخْرَجَتْ ثديَها فاحتواهُ ونامْ؟
كومةٌ مِن أواني الطعامْ
كومةٌ مِن مباهجَ مسحوقةٍ
كومةٌ مِن حديدِ البناءْ
صندلٌ في الفناءْ
أين تلك التي اختارت الحجمَ واللونَ والنقشَ
بعد الطّوافِ وبعد التّذاكي على البائعينَ
هَوَتْ في الفناءِ وصندلُها طار نحو السماء!
كومةٌ من صراخْ
كومةٌ من سكوتْ
كومةٌ من بقايا البيوتْ
كومةٌ من مقاعدَ، أين الذي فَتَحَ البابَ مبتسماً للضيوفِ
وطاف بقهوتِهِ بعد أن فَرَغوا من طعام العشاءْ؟

كومةٌ من حبوب الدواءْ
أين تلك التي لم تملَّ التأكُّدَ
مما إذا كان بَعْدَ الطَّعامِ
وأكَّدَ أحفادُها كلُّهم «جَدتي هُوَ بَعْدَ الطعامْ»
كومةٌ مِن دفاتر محروقةٍ
كومةٌ من دُروسِ الحِسابْ
كومةٌ من لُعَبْ
كومة من تَعَبْ
كومة من غَضَبْ
كومة من مواعيدَ
والموتُ يهبطُ مِثْل غطاءٍ من البَفْتِ أبيضَ
ذي بُقعٍ من هُدوءٍ
وتصفرُ ريحٌ
وفي الريحِ تخفقُ راياتُ عشرينَ مملكةً للعَرَبْ!

وطلبنا جُرْعَةَ الماءِ فقالوا ... نحن شئنا لكنِ الماءُ أبى
وطلبنا الخُبز قالوا قد عَجَنّا ... وغَفَلْنا فنسينَا الحَطَبَا
وطلبنا في انقطاع الضوء شمعاً ... نصحونا أن نضيء الكَهْرَبا!
وطلبْنا سيْفَهُم قالوا اعذرونا ... كلُّ سيفٍ بين أيدينا نَبَا
غير أنّا عندما جئنا إليهمْ، ... عن طريقِ البحرِ، صاحوا مرحبا!

عجبي!...

عجبي (ولا عجبي) على بلدٍ وجمرتُه تُحرِّقُه فيمسحُ حَرْقَها برَمادِها
لبنانُ يا مستوحداً في ليلةٍ
طفقَتْ تضيءُ سوادَها بسوادِها

وكأنّ موجاً يقتفي موجاً يموجُ
كأن جيشَ الجنِّ جُنَّ جنُونُهُ
وكأنّ كلَّ غرائزِ المحوِ الحبيسةِ
افلتَتْ في يومكَ المشهود من أصفادِها
وكأنّ كُلَّ قبائلِ الهَمَجِ العتيقةِ
داهمَتْكَ بخيلِها وعتادِها
حَمَلَتْ عليكَ أشرَّ مَنْ ألِفَ الزَّمانُ مِن العِدى والأصدقاءِ
كأنّ هذي الأرضَ لم تُنْجِبْ سوى أوغادِها
وكأنّ معجزةَ احتمالِ العَيْشِ هَدَّدَها الضياعُ
وَقُمتَ كالحيّ الوحيدِ تَجُدُّ في استرْدادِها
ورفعتَ ساعِدَكَ اليسارَ إلى ذويكَ
فكنتَ يا لبنانُ مثلَ فريسةٍ تشكو إلى صيَّادِها

* * *

لبنانُ مقبرةُ الكَذِبْ
لبنانُ مُخْتَبرُ السَّرابْ
لبنان وَحْدَكَ مَنْ كَتَبْ
وهُمُ الهوامشُ في الكِتابْ
لبنانُ جُلْجُلَةُ التَّعَبْ
بوابةُ الحُلُمِ المُصابْ
تَعِبَ الغُزاةُ وما تعِبْ
لولا ممالكُنا الخَرابْ
لبنانُ في الدمِّ إن ذَهَبْ
باقٍ يَجِلُّ عنِ الذّهابْ

لبنانُ يا خيطَ الذهبْ
والكثرةُ الأخرى تُرابْ

* * *

لبنان مقبرةُ العباءاتِ التي كَذَبَتْ على أجسادِها
لبنانُ مقبرةُ الفصيحِ القومجيّ
وكفُّ صاحِبِهِ تُثَبِّتُ خيمةً
وبكفِّهِ الأخرى يهبِّطُها على أوتادِها
لبنانُ مقبرةُ المُصلّي حين يسجُد للصلاةِ تُقَىً
وينقُشُ نَجمةَ الأعداءِ في سجَّادِها
لبنانُ جُرحٌ للفَتى الأمميّ، فضحٌ للقريبِ وللقصيِّ
مِسلَّةُ الشُّهداءِ، قائمةٌ من الدِّينِ العَصيِّ
وما تَقَدَّم غيرُنا لِسدادِها
لبنانُ قد يمضي بنا العُمْرُ القصيرُ ولا نَفيكْ
لبنان إن قالت فلسطينُ اصطفوا الخلَّ الوفيَّ سنصطفيكْ
وكفى دليلاً للمحبة أنهُ
ما ردَّ موتَكَ عنكَ غيرُ الموتِ فيكْ.

* * *

نحنُ مَنْ لَمْ نَمُتْ بعدُ
كَمْ مرةً سنموتُ
لتمنحنا من تعانِدنا كفَّها؟

نَفَرَتْ فإنْ ناديتَها لَمْ تلتفِتْ، وإذا ابتغيتَ لِحاقَها لم تَلْحَقِ
عَزَّتْ على عُشّاقِها وترفَّعَتْ وَعَلَتْ مدارِجُها أمام المُرْتَقِي
حتى إذا احتضرَ الفَتى هَمَسَتْ لَهُ مُتْ في المساءِ وفي الصّباحِ سنلتقي!

عندما نلتقي
سأقفُ أمامَكِ مذهولاً
عندما نلتقي
سألمس جَسَدكِ برفقٍ كما تلمسُ أوراقُ الخريفِ الأرضْ.
عندما نلتقي سأندفعُ نحوكِ
كحفيدٍ يغوصُ في عباءَةِ جدِّه.
عندما نلتقي سأنتحبْ.
عندما نلتقي سأبحثُ عن عصا من الخيزران وأضربُك بقسوةٍ على إِلْيَتِكْ،
سأضربُك كحليمٍ فَقَدَ صَوَابَهْ.
عندما نلتقي عليكِ أن تخبريني لِماذا تهرَّبتِ منّي طِوالَ العُمر،
كلَّما أَوْشَكْتُ أن ألمسكِ اختفيتِ،
وكأنَّ بوابةً رهيبةً ماثلةٌ بيننا،
وكأنَّ مفاتيحي صدئةٌ أو مثلومةٌ.
أورثني حبُّكِ تَشقُّقاً في القدميْنِ، ورجَّةً في الرُّوح
ماتَ أكثرُ جسمي وماتَ أكثرُ المحتشدين فيّ.
أيتها الكاملةُ المكتفيةُ بذاتِك،
أما عَلِمْتِ أبداً بتلك الأهوال؟
كان الهواء يتحول إلى تمثالٍ حجريٍ مِن الهواء
هكذا يحسّ الناجونَ مِن المذبحة
عندما تنغلقُ الفجوةُ الرائعةُ بين اللَّهاةِ والحَلْقْ
وهل أطلَقْتِ سرباً من الكِلابِ خلفَنا لنواصِلَ الركضَ نحـوَكِ على سُلَّمٍ
مِنَ الفواجعِ لا ينتهي؟
أسماءُ اصدقائي تجمدَتْ على شواهِد القبورْ

والأقلّ حظاً قُبروا في الأخاديد
أيتها الشرهةُ، كمسقطِ شلاّلٍ
أيتها القاتِلةُ، كسقفٍ يهوي في أوج الاحتفالْ
أيتها الشغوفةُ بالمراثي
وهي تغطّي القَتْلى بالخُوصِ الأشهبِ المبتلّ،
ما كان أجدرَ بناتِ الثانويّةِ بقصائِدِنا
وهنّ يُسَمِّرْنَ أجسادَنا على الطُّرُقاتِ
بمشيتِهِنَّ القادرةِ على تثبيتِ البرقْ!
وما كان أجدر حقولِ عبّادِ الشمسِ
بالالتفاتِ إلى وجوهِ أمّهاتِنا
لَوْ لَمْ تُهدِّمْ ملامِحَهُنَّ المَصائِبْ
يا مَنْ تجمعينَ الضحايا كحاطِبِ ليل
سأعاقبُكِ على إفسادِ العمرِ الوحيدِ الذي مَنَحَتْهُ لي أمّي
سأعاقِبُكِ على عِنادِكِ الشبيهِ بعنادِ البغالْ
سأضربكِ كما يضربُ المَطرُ السقيفةَ.
سأضربكِ كما تَضربُ أجنحةُ الدّجاج عيدانَ القَفَصْ
وسأصلّي لكِ في صمتٍ كصمتِ ناقوسِ المعبدِ بين دَقَّتَيْن.
سأُقَبِّلُ جبينَكِ سبعَ مراتٍ
سأقبِّل يديكِ سبعَ مراتٍ
سأقبِّلُ خاصرتَيْكِ وساقَيْك،
سأمسح خصلاتِ شعرِك،
سأشمُّ رائحَتك،
ستستعيدُ مسامّي وخلاياي رائحةَ حقلِ لوزٍ يفضي إلى حقل ليمونٍ يفضي

إلى كهوفِ الساحراتِ وهُنَّ يجرشنَ التوابلَ ليصنعْنَ رُقْيَةً لصبيٍّ مَسَّهُ العِشْق

سألثم أطرافَ أصابِعك
وسأتكوَّر بين ذِراعيكِ كالكنغرِ الصَّغير
أو
سأقف إلى جوارِكِ معتدلَ القامة
وأرفعُ يدَكِ اليُسرى عالياً عالياً
وأتركُ دموعي تسيل
حتى تُلامسَ ابتسامتي
فقط . . لو ألقاك
أيّتها الحُرِّيَّة!

* * *

نحن من لم نَمُتْ بَعْدُ
كَمْ مرةً سنسمّي الخرابَ خراباً
ونجعلُهُ واضحاً كالخرابِ؟
وكم مرةً سنموت لنحيا
نَفورينَ من كَرَمِ الصفح والمغفرة؟
ونحفظ ما شاهدتُه العيونُ
وما كابدتهُ القلوبُ
وما زلزل الذاكِرة:
بماذا فَكَّرَ الشيخُ الذي ذبحوهُ قبل الذبحِ
هَلْ ذَكَرَ البلادَ أم الطفولَةَ أمْ أقارِبَهُ
هل استعصى الصراخُ عليهِ

أم فَقَدَ التَّخَيُّلَ والرَّجاءْ
وهل ذكر الزنازين العديدةَ والمشانقَ والمباحثَ
أم أحسَّ بحاجةٍ للبَوْلِ لو سمحوا لَهُ
أَمْ ظَنَّ مِنْ عَدْوى التواريخِ العتيقةِ أن «معتصماً» سينقذهُ
أم ٱلتمَعَتْ بخاطِرِهِ صفوفُ النّسوةِ القَتلى أمام الماءْ
أأيقَنَ أنهُ سيموتُ
أمْ ظنَّ الذي هوَ فيه كابوساً
سيصحو منه بعد دقيقةٍ
لتناوُلِ الإفطارِ مع أحفادِه الخبثاءْ؟
أم ٱرتعشتْ بداهُ
إذِ استعادَ فراقَ أبناءٍ بكى فبكوا على كَتفيهِ وارتحلوا
يُوَدِّعُهُمْ رَذاذ الأرزِ يتبعُهُ رذاذ الطلِّ يتبعُهُ رذاذ الدمعِ في الميناءْ؟
وهل رَجَّتْهُ خاطرةٌ تُسائِلُهُ
بِكَمْ أرضٍ وَكَمْ بَلَدٍ سيُدْفَنُ بَعْدَنا الأبناء
هلِ ارْتَجَفَتْ مَفاصِلُهُ
هلِ استقوى على هَلَعٍ يُخَلْخِلُهُ
هلِ امتدتْ أصابعُهُ إلى حجرٍ وأعياهُ تَناوُلُهُ
وهلْ ذَكَرَ العواصمَ وهي خارجةٌ لنجدتهِ
على موجاتها الوُسْطى بذبذبةٍ تقولُ لَهُ،
هُنا العَرَبُ، هنا العَجَبُ
هنا الشرطيّ ممتشقٌ هراوَتَهُ
ويصرخُ: ماتَ شيخٌ في المُخَيَّم عاشَتِ العَرَبُ!
ولما استنجَزَ الموعودُ وعداً تصايحَتِ المُلوكُ بأَنْ فِدَاكَا

أغـاثـوهُ بـمـرثـيـةٍ ونـدْبٍ وبثستْ تـلكَ من غـوثٍ وذَاكَـا
ودَمْـعُ الحـاكِمينَ لـه لُـغَـاتٌ وأفْصَحُهـا يُـريـد لنـا الهَـلاَكَـا
(إذا اشتَبَهتْ دمـوعٌ في خـدودٍ تـبيَّـن مَنْ بـكى مِـمّنْ تَـبـاكـى)

نحن مَنْ لَمْ نَمُتْ
قَدْ فَقَدْنا الرِّضى
والعَفِيُّ بَدَتْ في المُلِمّاتِ أعطابُهُ
أذكروا وَلداً كان في ساحةِ البيتِ يصرخُ
لا شيءَ يحدثُ فجأة!
ولا شيءَ يسقُطُ فجأة!
وحتى الزلازلُ تبدأ من باطنِ الأرضِ حتى سقوفِ القُرى
اذكروا وَلَداً كان في ذروةِ الاحتفالاتِ يربكُهُ ما يَرَى
اذكروا وَلداً واقِفاً وَسْط هذا التصدُّعِ يصرخُ
كيف تَزَلْزَلَ هذا الجِدارُ ولم ينسلخْ عنه لبلابُهُ!

* * *

قُلْ للخطايا كَمْ كَسَرْتِ مِن المَرايا
يا مرايا كم كَسَرْتِ من الوجوهِ
ويا وجوهُ كم احترقْتِ مع الأكُفِّ
ويا أكفُّ كم احترقتِ مع السلاح
ويا سلاحي كم خَجِلتَ مِن الطُّغاة!

* * *

قُلْ للمباحِثِ طابَ يومُكَ يا جَرادُ
ويا جرادُ كمِ انتشرتَ على الجرائدِ
يا جرائدُ كَمْ كذبتِ على المطابعِ

يا مطابعُ كَمْ كذبتِ على الأصابعِ
يا أصابعُ كَمْ عقدتِ من المشانقِ
يا مشانقُ كَمْ مِن الأرضِ اسْتَعَدْتِ مِن الغُزاة؟

* * *

يا أيها الجوعى تعالوا
سوف نُخرِجُ قَمْحَنا القمحيَّ مِنْ هذا الزَّوَانْ
هاتوا الغَرابيلَ الدقيقَةَ ثم هزُّوها ثقيلاً أو خفيفاً
قد أفسدوا ماء السواقي والمزارعَ والسنابلَ
والمطاحِنَ والعجينةَ والرغيفا
يا أيها الغربال لا تهدأْ
فإنّا منذُ دهرٍ لَمْ نَذُقْ خبزاً نَظيفاً!

* * *

نَحْنُ من لم نَمُتْ بَعْدُ
باقونَ كي نُصلِحَ الكلماتِ
سنغسلُها مثلما يُغْسَلُ الصحنُ من دهنِهِ
ونردُّ المَعاني إلى أصلِها
ونردِّد يا كلماتُ استعيدي معانيكِ ولتمسِكيها بحرصٍ وعودي لنا مثلما كُنتِ:
حيث «الحبيبُ» تساوى «الحبيبَ»
وحيث «العدوُّ» تساوى «العدوَّ»
وحيث «المحاكم» تعني المَحاكِمَ لا «المِشنَقَة».
وحيثُ «الصلاةُ» تفيد بشيءٍ سوى «الزندقة»
وحيث «السموم» تساوي السموم وليس «الاذاعه»
وحيث «الرّخاء» تساوى «الرخاء» وليس «المجاعه»

وحيث «صيانةُ مكتسباتِ البلادِ» تدل على عكس أن البلاد «مُباعه»
وحيث «لِمَوْهِبَةِ الببّغاواتِ» معنًى سوى «جلسةِ البرلمان»
وحيث «احتضان العدى» لا تساوي «أخي جاوز الظالمون المدى»
وحيث «الفكاهة» تعني الفكاهة لا «خُطبةً للرئيس»
وحيث لِعُضْويَّةِ الحزب معنى سوى «سفرٍ للنقاهة»
وحيث «طَلَعْنا عليهِمْ طُلوعَ المَنونِ» تساوي الهجومَ وليس الفرارْ
وحيث «نُرَحِّبُ بالقادمينَ» تفيد بشيءٍ سوى «ذلنا» في المطار.
وحيث «الهزيمة» تعني الهزيمة لا «الانتصار»
وحيث «المواطن» تعني المواطن ليس «الحمار»
وحيث «الصمود» تساوي «الصمود»
وحيث «الظبا» لا تساوي «القرود».
وحيث «الملوك» تساوي الملوك وليس «العبيد».

وطني حِصارُكَ لَم يزلْ في أوْجِهِ ... والطَّوْقُ حولَكَ كاملٌ لَمْ ينكَسِرْ
ما أكثرَ الأُمراءَ حولك إنّما ... مرني أُطِعْكَ وليس غيرك مَنْ أَمَرْ
أنا من عَصاهُمْ في الكُهولةِ والصِّبا ... وَوَهَبْتُ صوتي عبرةً لِمَن اعتَبَرْ:
لا تُنْقِذُ المؤودةَ الكفُّ التي ... ما اتقنتْ شيئاً سوى حفر الحُفَرْ
والله إن حجارة الأطفال في ... بَلَدي لتخجلُ من قصورِهِم الحَجَرْ
إن سَرَّ أكثرَهُمْ تناثُرَ صيحتي ... قد ساءَهم أنّي أجَمِّعُ ما انتثَرْ
أنا راكضُ الدهرِ اللَّحوحُ أصيحُ مِنْ ... خِيَمِ الضيافةِ والجحيمِ المستتِرْ
ومِن المطارِ مِن القطارِ مِن العوا ... صمِ والقِفارِ مِن المواني ءِ والجُزُرْ
سأصيح صيحةَ من يعانِدُ موتَهُ: ... لا بُدَّ مِنْ بَلَدي وإنْ. . . . . .

أواخر ٨٢/ أوائل ٨٣

لي قارب في البحر

لي قاربٌ في البحرِ روحي أبحرتْ معهُ،
كفّاي مجذافاهُ والعينانِ قنديلاهُ والأضلاعُ أضلعُهُ،
لا النجم لاحَ لمُبحريهِ ولا بدا لنواظرِ الأحباب مطلعُهُ،
تتدافعُ الأمواجُ ضدّ مسارهِ وأنا بنبضِ القلبِ أدفعهُ،
كَمْ من فتىً مستصوبٍ إبحارَهُ غَرَقاً
لو أدركَ التيارُ بَعضَ خصالِهِ ما كان يصرعهُ،
وصبيةٍ هتكتْ قميصَ الريحِ عازمةً
عزماً يعمُّ على بلادٍ لو توزعهُ،
دمها يكاد يعاتبُ الأسماكَ مرتعشاً
ونداؤها لو أصغتِ الأفلاكُ ليلاً سوف تسمعهُ،
والإستغاثةُ لم تصل لمغيثِها
إن ضاع غوث المستغيثِ فما لهُ شيءٌ يضيِّعهُ.

* * *

لي قاربٌ في البحر لو عَدّ العِدى رُبّانهُ لتحيّرا
إن ردَّ موتاً ظاهراً ما ردَّ موتاً مُضْمرا
وعدٌ تهشَّمَ قَبْلَ أنْ يعدَ المدائنَ والقُرى
لا جدتي تروي الحكايةَ والقصائدُ لا تحيطُ بما جرى.
يتثاءَبُ التاريخُ في هذي البلادِ كأنّهُ مَلَّ الحكايةَ كلَّها،
ملَّ الدَّمَ المسكوبَ من جيلٍ لآخر والرجوعَ القَهقرى!
هل كل هذا الموتِ يخلو من قِيامة؟
وهل المُرجَّى ضاعَ ضيعةَ «خاتمٍ في التُّربِ» أمْ أنّا سترشدُنا علامة؟
وهلِ المُسافرُ ملَّ أخطارَ الطريقِ أم أنَّهُ مَلَّ السلامة؟

* * *

لي قاربٌ فيه النبيُّ وفيهِ شيطانٌ رجيمْ.
فيه المعذِّب والمعذَّب والنعيم مع الجحيمْ.
مع كاشفِ الطرقاتِ والأعمى وأفذاذٌ، وأمّيونَ، مبتكرو مخارجَ، موقدو
أملٍ ومرتكبو مباهجَ، ظالمٌ فظٌّ ومظلومٌ حليمْ
لي قاربٌ فيه الشجيُّ مع الخليّ
مع المُخَرَّبِ والعَفيِّ
مع الأغاني والضجيج المدفعيِّ
مع الصبايا في الحذاءِ العسكريِّ

مع المُقدِّمِ روحَهُ والصيرفيِّ
مع الغريرِ مع الحكيمْ
لي قاربٌ فيه الرصاصُ وفيه ملاَّحونَ مصطرعونَ، فوقَهُم النجـومُ كأنهـا موتى وحولَهم الرفاقُ الميِّتونَ
كما النجومْ.
يا أيها الماء انتبه!
هذا هلاك كالهلاك!
تمهلوا وتأملوا دمكُمْ قليلا!
هل أُنهكَ الضدُّ النبيلُ فصار مهزوماً نبيلا؟
أم غَيَّر الماشي السبيلَ أم أنَّهُ ضلَّ السبيلا؟
أنا لا سرير يدوم لي
لا سقف يألفني طويلا
أما الأحبةُ لست ألمسُهمْ، وإنْ قالوا «الإقامةَ» قُلتُ بل قصدوا «الرَّحيلا».
ويجيء بالأَخبارِ راويها فافزعُ قَبْلَ أن أصغي له أو أن يقولا..
تَلِدُ الحواملُ ثم تدفِنُ، ثم تشهقُ فرحةً بوليدِها وتعودُ تدفنُ، ثمّ تُـدمِنُ حزنَها جيلاً فجيلا
وأكاد أسمعُ دمعَ جداتٍ فقدْنَ الصبرَ يهمسُ مُرهَقاً: «صبراً جميلا»
وأنا محاولةُ البقاءِ وكلُّ ما حولي يحاول أنْ أزولا
الوقتُ ذو نابينِ يكمُن لي
وأهلي يهدمونَ يدي، أضيفُ يدايَ اخطأتا كثيراً أو قليلا!
وطني سماحَكَ لم أصلْ في موعدي
الموتُ أخَّرني قَليلا.
أنا من سيبني يأسَهُ بعنايةِ

ويقيمُ فيه مُحصَّناً ضد الغُبار الحلوِ، ضد الابتهاج المرِ والصدأ الخفيِ ،
وسوف أَخرُجُ منه مجلوّاً صَقيلا
لا وَهمَ يقنعُني طويلا!
لا نجْمَ يخدعُني طويلا!

* * *

قل إنني مَهدٌ يقاتلُه ضريحْ .
قل إنني اليأسُ الفصيحْ .
قل إنني الخطأ الصحيحْ .
قل إنني وَلَدٌ وكفُّ الموتِ ملعبهُ الفسيحْ .
قل إنني مزجٌ عصيٌّ بين بارودِ الخنادقِ والمسيحْ .

* * *

لي قاربٌ في كل بحرٍ، خطوةٌ في كل برٍ والمدى سكنِي
جسدي مظاهرةٌ، وفرَّقها الخصومُ
ولا أظنُّ العمرَ يكفي كي يُلْملَمَني
صَرتُ التبعثرَ في البلادِ وكثرةُ الأوطانِ تعني قِلَّةَ الوَطَنِ!
جسدي خزانةُ كلِّ ظلْمِ الأرضْ،
جسدي سقوطُ العدلِ من عليائِهِ وسقوطُ سرِّ اللّه في العَلَنِ:
جسدي انهماكُ الروحِ في إعدادِ نقمتها:
متكررٌ مثلَ الظهيرةِ، مثل حَبِّ القمحِ ، مثل حكايةِ الجدّات، مثلَ
مَطالبِ الأطفالِ ، مثل اللّغْمِ
أكمنُ في الزمانِ، ومن يُعِدُّ القبرَ لي يخشى انتباهي وهو يدفنني!
قل إنني العاجزْ
قل إنني القادرْ

قل إنني العاديُّ والنافرْ
قل إنني بقعٌ من المستقبل انتشرتْ على الحاضِرْ
قل إنني الصَّلَفُ الحزينُ بما عصيتُ وما أطعْتُ
وأنا الذي حاولتُ جعل الله أحلى . ما استطعتُ
وأنا الذي حاولتُ جعل الأهل أهلي ، ما استطعتُ
سُدَّتْ جميعُ طرائقي ونُهيتُ، لكن ما انتهيتُ .
قل إنّ فيَّ عواصفاً خجلى
وشهواتٍ مكبلةَ الأيادي
قل إنني مهرٌ بلا بَرِّ
وشبهني بإطراقِ المنادَى حيث لا أحدٌ ينادي !
قل إنني جمرُ المواقد في شتاءِ الله غطاني رمادي .
وأنا بلادُ الروح تبني لي كهوفاً من سرائرها ،
بلاد الله تنكر خطوتي فيها ،
بلاد الموت تفتح لي حدوداً دون أختامٍ وتستعصي على عيني بلادي .
وأنا عنادٌ فاجع وأنا عيونٌ أجَّل التاريخُ دمعتها ، وكلّفها التيقظَ في الظلامْ
أنا نظرةُ الإلحاح في قومي إذا عزَّ الكلامْ
أنا حارسُ الصحوِ انتبهتُ من الفطامِ إلى الحُطام .
أنا حارس الأبوابِ والأسوارُ ساقطةٌ وتقتربُ الذئابُ
ناديتُ، لم أُسمَعْ ، فخالجَني ارتيابُ
أنا حارس الفلواتِ ، يا قتلايَ قوموا !
(لا يقومُ الميتونَ) ،
كذلك الأحياءُ حولي لم يقوموا حين أدمتني الحِرابُ
يا بومةَ العَرَب انعقي وتجولي ، عَمَّ الخَرابُ !

وأنا خِتامُ هزائم العربي وهو هزيمتي الأولى وعاري طائِلُهْ
قل إنني من يُخرِجُ الأشكالَ من أضدادِها
يبني ويهدِمُ ما استطاعتْ كفُّه ومعاولُهْ.
قل إنني شقٌّ نحيلٌ في جدار الوقتِ ـ
يكمن في انتشاري هولُهُ وزلازلُهْ.
قل إنني الدربُ الحرامُ ومَنْ مشاهُ ومن هدتهُ مشاعِلُهْ
قل إنني من يحفظُ القَسَماتِ حتى لو تَقَنَّعَ قاتِلُهْ.
قل إنني سَكْبُ الغمامِ، على أواخِرِه تهلُّ أوائلُهْ.
قل إنني نَزْفُ الحمامِ إذا هَوَتْ عندَ الحُدودِ زواجلُهْ
قل إنني ساعي البريدِ من الشهيدِ إلى الشهيدِ لكي تُصانَ رسائِلُهْ.
قل إنني من كان من غاياته نسجُ الحياةِ كما القميص ـ وإنْ بدا أن القبورَ وسائِلُهْ.
وأنا البشاشةُ والوجومُ ـ أنا التراجعُ والهجومُ أنا السؤالُ وسائِلُهْ.
قل إنني من لَوْ تكادُ يداهُ أن تتصافحا ـ مع مستبدٍ، «لم تُطِعْهُ أناملُهْ».
قل إنني البنتُ الجموحةُ افلتتْ من سجنها القَبَليِّ ـ تُدمي كفَّها أقفالُهُ وسلاسلُهْ.
قل إنني سأموتُ دون مداخلِ الوطنِ الذي تعطي الحجارةَ والصغارَ مشاتلُهْ.
قل إنني بحرٌ تتالى فيه غرقاهُ الكثارُ ومابدتْ للمبحرينَ سواحِلُهْ
قل إنني المجنونُ، أبصرُ موتَ حلمٍ رائعٍ وأواصلُهْ.

١٩٨٣

غُرَفُ الرُّوح

ما الذي يسلبُ الرُّوحَ ألوانَها؟
أُرجوانَ البَهاءِ
وسُمّاقَها المخْمليَّ وناريَّها،
شهقَةَ اليوسُفيِّ،
وأخضرَها المتموِّجَ منذُ السياجِ
وحتى الأبدْ؟
ما الذي طال نرجسَها الهشَّ
حَنُّونَها الحُرَّ في الوَعْرِ
أشهبَها العِنَبِيَّ الموشَّى بحزنٍ طفيفٍ
وغَيْميَّها المتحيِّر في شَكْلِهِ
والرضى الفستقيَّ المشوبَ بدكْنتِهِ
(دائماً، للرضى ما يَشوبُ الرِّضى)

ما الذي قبل أنْ تستقر بداياتُهُ،
انقضى؟
ما الذي خَدَشَ اللؤلؤيَّ المُضاءَ بأعماقِها
ورمى حجراً صوبَ مِرآتها وابتعدْ؟
ما الذي مَسَّ قمْحيَّها البَيْدَريَّ
وَخَيْليَّها الصاهلَ، الشبقَ، المُتَّقِدْ؟
كيف ما عاد يذهلُها
الزَّغبُ المشمشيُّ المنوّرُ
ما بين نَهدَيْ فتاةٍ، يمرُّ عليها
حريرُ المغيبِ وكفُّ الوَلَدْ؟
ما الذي قسَّم البحرَ والأهلَ والعمرَ
والحلْمَ والموتَ صفين فينا
كأنّا نرى الناسَ راحتْ هباءً،
وظلّ الزَّبَدْ؟
مَنْ سيرسم في دفتر الرسم قصراً
ويهدم داراً تضجُّ بسكانها؟
لا أحد
سوف ينجو من المسألة
لا أحد
سوف ينجو من الأسئلة
لا أحد
ما الذي أورثَ الرُّوحَ أوجاعَها
ما الذي، غيرَ قصفِ الغزاةِ، أصابَ الجَسَدْ؟

أُغـادِرُ كُـلَّ رغْـبـاتـي. ومـا عِـنـدي
مـبـاهـجُ، غـيـر كَـوْنِ الـهَـمِّ يُـحـتَـمَـلُ
وبـي أمـلٌ، ولـكـنّـي أُرادِفُـهُ
بِـشَـكٍّ مُـجَـرِّبٍ لـم تُـغْـرِهِ الـحِـيَـلُ
إذا بـمـجـرد الآمـالِ عـاش فـإنَّـهُ
حَـتْـمـاً يـمـوتُ بـيـأسِـهِ الـرَّجُـلُ
وحـاطـبِ لـيـلٍ اجـتـمـعـتْ بـراحَـتِـهِ
مَـعَ الـعـيـدانِ أفـعـى سُـمُّـهـا عَـجِـلُ
فـلا بَـرَقَـتْ لـهُ نـارٌ عـلى جَـبَـلٍ
ولا اسـتـهـدى بـهـا فـي الـلـيـلِ مُـرْتَـحِـلُ
لـخـيـرٌ مِـنْ دلـيـلٍ فـي تَـخَـبُّـطِهِ
يُـضَـلِّلُ أهـلَهُ والـصـبـحُ مـكـتَـمِـلُ
فـلـيـتَ ذوي الـغـشـاوةِ، وحـدهـم، طُـويَـتْ
صـحـائِـفُـهُـمْ لـيـنـجـو كـلُّ مَـن عَـقِـلوا
ولـكـنْ تُـنْـظَـمُ الأوهـامُ فـي نَـسَـقٍ
وكـفُّ الـمـوتِ، إذ تـجـتـاحُ، تَـرْتَـجِـلُ
وُقـيـتَ الـويـلَ يـا وطـنـي فأقسى مِـنْ
بُـطولـتِـكَ الـحـزيـنـةِ حـزنُـكَ الـبَـطَـلُ

ما الذي رَجَّ روح البلادِ من الحَدِّ لِلْحَدِّ
رج اللُّحود من اللَّحد لِلَّحدِ
ميزانُنا مال في يدنا:
كفتان، فلا استوتا، حيثُ شِئْنا
ولم تَرجح الكفَّةُ الراجِحةْ.

قال لي صاحبي :

«لا تُفاجَأْ بشيءٍ»

وقلتُ لَهُ :

«لا تُفاجأْ بشيءٍ»

وقد فاجأَتْنا، كلينا، التفاصيلُ

كلُّ الذي قد توقعتُهُ

الآن فاجأني

وهو فاجأَهُ ما تَوَقَّعَهُ البارِحة!

لم نُصَبْ بالجُنون

ولكنْ أيُدرِكُ من يعقلونَ

لماذا تظلُّ الخِرافُ إلى معقلِ الذئبِ

غاديةً رائحة؟

ولماذا النجاة تضيِّع فرصتها في النجاةِ

وتحظَى المهالِكُ بالفرصةِ السانحة؟

أينما كان عنواننافي البلادِ

يريدون عُنوانَنا الأضرحة!

* * *

رفعوا صورته عاليةً

وأمالوا كَفَنَهْ.

يهجمُ الطَّلقُ على الأُمِّ ولا تدري

لماذا تخطفُ الطلْقاتُ منها بَدَنَهْ

كانت الطلْقاتُ لا تعرفُهُ

عَرَفَتْ ماذا يريد :

كان يبغي نَجْوةً
مِنْ هلاكٍ،
كان يبغي وَطَنَهْ.
حفرةٌ وابتعدوا
صاح شيخٌ مُقعَدُ
ليتهمْ لم يولَدوا
لرصاصاتِ الغزاة
وزنادِ الخَوَنة
حفرةٌ وابتعدوا
عَدَّ مَنْ يعرفُهمْ قتلى
وتاهَ العدَدُ
رفعوا صورتَهُ
وأمالوا كَفَنَه
يهجم الطَّلْقُ عَلى الأُمِّ،
كما فاجأَها
قبل عشرينَ سنَة!. . . . . .
يَرُجُّ الطَّلْقُ مَرْقَدَها
تلوبُ لِتُمسِكَ اللاشيءَ
عشرُ أصابعٍ لترُدَّ هذا الويلَ
في صمتٍ
وتقوى، ثم لا تقوى
تَقُدُّ هَواءَ غُرفَتِها
تَقُدُّ ملاءَةَ الدُّنيا

يدور الوجهُ في ذَهَلٍ على الجنبينِ
ملحٌ جفَّفَ الشَّفَتيْنِ
بابٌ مُحكَمُ الإغلاقِ
ألوانٌ يلاحِقُ بعضُها بعضاً
يدٌ مذعورةٌ وَتَدُقُّ ثمَّ تَدُقُّ
لا جَدْوى
تدورُ الدارُ دائرتَيْن، تُظلِمُ فيهما الأوجاعُ ثم تضيءُ
يطفو العُمْرُ فوق ضَبابةٍ كالظلِّ أو أَوْهى
وصاحَتْ دايةٌ «وَلَدٌ»
ولا أحلى ولا أبهى
وصاحَ الطِفْلُ في يدِها. . .

* * *

يفرُّ مُدَرِّس الإنشاءِ مذعوراً وأبلهَ
حين يبصرُ ما بنا
وتفرُّ سيدةُ الخواتمِ والحلِيِّ
ويرتبكُ المُهنِّيءُ والمُعَزِّي
ففي أوجاعنا كِبْرٌ
وفي أعراسِنا شيء من الحُزْن الخَفيِّ
ونربحُ كلَّ شيءٍ ثم نَخْسرُهُ
فتستعصي خسارتُنا على
وصفِ المُفَوَّهِ والعَييِّ.
ونحن اثنان شئنا أمْ أبَيْنا
ومِذراةُ الزمانِ إذا رمتْنا

على جهتينِ يتضح الحبيبُ مِن الدَّعِيِّ
لكلِّ مواطنٍ موتٌ، ونحن لنا
بكل مدينةٍ موتٌ.
لكلِّ مُواطنٍ حاكمْ
ووحدك أنتَ محظيٌّ بعشرينٍ من الحُكّامِ
في عشرينَ عاصمةً
فإنْ أغضبْتَ واحدَهُمْ
أحلَّ دماءَك القانونْ.
وإن أرضيتَ واحِدَهُمْ
أَحَلَّ دماءَك الباقونْ
تَهَذَّبْ عِندَهُمْ عشرينَ تهذيباً
بحيثُ تُهانُ مبتسماً، وحيث تهونْ
تهذَّبْ يا فلسطينيُّ حيثُ تكونْ
وبارِكْ رقَّةَ الطاغي
وأَثْنِ على حِجى المَجْنون
وأَثْنِ على اعتدالِ الجوّ طولَ العامِ
من مايو إلى أيلولَ أو تشرينَ أو كانون
تَهذَّبْ يا غريبَ الدّارِ حيثُ تكونْ
تعلَّمْ حِكمةَ الطاعة
تعلَمْ حِكمةَ الطاعونْ
تهذَّبْ ميِّتاً أيضاً
ولا تُزْعِجْ مطاراتِ البلادِ
بجثةٍ تستلطفُ الطيرانَ

من ليلٍ إلى ليلٍ ومن بلدٍ إلى بلدٍ
خبيثٌ أنتَ
صرتَ تُقَلِّدُ السيَّاح ـ مَيْتاً ـ أيها الملعون
أما كنتَ انتظرتَ هبوبَ مجزرةٍ
ومقبرةً جماعيَّة
وأنتَ الميِّتُ المشبوهُ قبل الموتِ، عند الموتِ، أو بعدَه
تشاغُل دافنيكَ هُنيهةً
لتصيحَ : حُرِّيَّة!

* * *

(تعددت المَهالكُ والممالكُ والحدودُ
تعذَّر الحزنُ العظيمُ
تعذر الفَرَحُ العظيمُ
وماتَ معْ من مات مألوفُ الكلامِ
وخابتِ اللُّغَةُ التي ازدحمتْ بها العاداتُ والكُتُبُ
فلا لومٌ ولا عَتَبُ
على حبسِ الدموعِ ولا على من مات ينتحبُ
ولا لومٌ ولا عتبُ
إذا ذهبتْ قصيدتُنا
مذاهبَ غير ما رَسَمتْ لها الأعرافُ والعَرَبُ
ولا لومٌ ولا عَتَبُ
إذا جَمَّعْتُ في كفّي حجارَتَكُمْ
لأرجمَكُمْ
لنا لغتانِ،

واحدةٌ تعيش هنا
وأخرى اغتالَها «الأَدَبُ»)

* * *

في زمانٍ غير هذا، من زمانْ
كان للشاعر أن يختارَ جواً للمراثي
ربما صفصافةً مالتْ كما عُرْفِ الحِصانْ
ربّما صمتَ المَكانْ
ربما يأتي على وصفِ رُخامٍ نامَ فيه الأُقحوانْ
ربما يبكي على العشبِ الندِيّ
ربما يحكي عن الخل الوفي العاطفيّ
ربما يهمل حفار القبور الواقعيّ
ربما يعطي له جمجمةً
ثم يلقي في وقارٍ مسرحيّ
مقطعاً عن حِكمةِ الموتِ وعن آنِيَّةِ الدُّنيا
وينعي في صفاءٍ فلسفيّ
مُضحِكَ القصرِ ومولاهُ معاً
ويساوي بين ذُلِّ العَبْدِ والسيِّدِ
والشهواتِ والحرمانِ من كلِّ شهيّ
ربما يرسمُ غيماً مائلاً يبكي
ويحكي عن فتاةٍ قَدَّتِ الثَّوبَ
وألْقَتْ جسمَها فوق الصبيّ
غير أني عندما أكتُبُ في الموتِ أراني صامتَ الوجهِ
ومعقود اللّسانْ

وكأنّي أسمعُ المَخفيّ فيّ
وكأنّي لا أقولُ الشِّعر مِن آنٍ لآنْ
وكأنَّ الشاعرَ الحَقَّ عدوُّ الشاعِرِيّْ
أيها القَتلى فَلَسْتُمْ جُثثا
إنني منكُمْ، ومن ينظرْ إلى روحي يَجِدْ
في كل ركنٍ جَدَثا.
تبصرُ العينانِ ما يُبكي على الباكي عليكمْ
إنْ جَرَى دمعٌ على مَنْ حَنَثا
أيها القتلى أتدري روحُكمْ ما حَدَثا
قيل ننساكمْ لكي نحيا. . .

* * *

ولكن عَبَثا
قيل ننساكمْ ونبكيكُمْ ونبكيكُمْ لننساكُمْ

* * *

ولكِنْ عَبَثا
أيها القَتلى أما يُقْلِقُكُمْ شيءٌ عَلَيْنا
طمِّنونا مَنْ سِواكُمْ سوف يعطينا الأمان؟
في زمانٍ غيرِ هذا، من زمانْ
قَبْل أن يَدْخُلَ في ثوبي عَدُوِّي
قَبْل أن يُصبحَ للأخطاءِ أخطاءٌ تُدوِّي
كان رامي السهمِ يرميهِ إلى صدرِ سواه
كان باني البيتِ لا يهدمُهُ
كان قلبُ المستجيرْ

مطمئناً أن من يُؤويهِ لا يُسْلِمُهُ
كانت الوالدةُ الملهوفةُ العينينِ
لا ترضى بتقسيمِ الوَلَدْ
أيها القَتلى بكلِ الحِقَبِ
هل رأيتمْ في عباءاتِ مراثيكُمْ مريباً
إنَّ عِندي ريبي
أيها القتلى أما يُقْلِقكُمْ شيءٌ عَلَيْنا؟
طمنّونا
مَنْ سِواكُمْ سوف يعطينا الأمان؟
كَمَدُ الأحياء من حي لحي يكتملْ
وانذهالُ الناس من بيت لبيتْ
قال لي قلبي وقالت لي الطريق
إننا نَعْجَبُ من مستعجلٍ أعمى يَصِلْ!
هذه مقبرةٌ حقاً ولا شِعرَ ضرورياً لها
إنها تصحو على القصفِ وفي الفصحى تنام
كيف يا قتلى تنامون هنا
لتقولَ امرأةٌ تغرقُ في الأصباغِ عنكمْ «يا حَرامْ»!
يكتبُ الشاعرُ مرثاةً لينساها
وتنساها خطىً تنسى الكلامْ
(سئِمْنا كلَّ مَرْثِيَةٍ
سئِمْنا أنّنا حالَة
سئمنا أنّنا رُحَّلْ
سئِمْنا أنّنا يُمشَى بنا في كلِ مُفْتَرَقٍ ولا نُسأَلْ

سئمنا أننا نمشي
فيمشي آخرُ الأخطاءِ فوق صححينا الأولْ
ولا عَجَبُ
تعددتِ الحرائقُ والبلادُ
كما يعدُّ الإصبعُ المخفيُّ تحتَ ضمادِهِ الأخطاءَ
هل عَلَّمْتَنا يا جُرْحُ كيفَ الصَّحُّ يُرتَكَبُ!
تعددتِ المباهجُ حولَنا وتعددت أغلالُنا
فينا الذي بالموتِ كَسَّرها، وفينا من يُكسِّرها
وفينا من تعوَّدَها
وفينا ـ الآن ـ من أَغلالُهُ ذَهَبُ)

ويا امرأةً كأنَّ بها مزيجاً
مِن الرَّعدِ المُلَوَّنِ والغَمامِ
جموحٌ في وضوحٍ في غموضٍ
وَمِيضٌ في فضاءٍ في ظَلامِ
ويَطْعَنُ حُزْنُها سِنّاً وتحلو
برغم الحُزْنِ مِنْ عامٍ لعامِ
وكم خَدَعَتْ هشاشتُها عدواً
فإنَّ الوَبْلَ عاقبةُ الرِّهامِ
وكم خَدَعَتْ صلابتُها حبيباً،
فكَمْ أخْفَتْ دموعاً بابتسامِ
وما احتَمَلَتْ سوى ما قَدْ أطاقَتْ
وما كانَتْ تطيقُ على الدَّوامِ

ومِـــنْ دَهَشِ الـنَّـوى تـزدادُ صـمـتـاً
فـلا تـشـكـو بـمـألـوفِ الـكـلامِ
وكـم ضَـحِـكَتْ عـلى الـمـنـفـى بـبـيْـتٍ
فَـهُـدِّمَ مـثـلَ أعـشـاشِ الـحَـمـامِ
تـرى فـي نـومـهـا ولـداً جـمـيـلاً
بـبـاب الـدّار مـعـتـدلَ الـقَـوامِ
تـقـولُ: أعـادهُ الـمـولـى سـلـيـمـاً
وتـركضُ لـلعِـنـاقِ وللسَّـلامِ
فَـمَـنـذا قـد أمـالَـكَ يـا حـبـيـبـي
كـجـذعِ الـسـروِ مـلقـىً فـي الـزحـامِ
ومـا فـي صـمـتِ صـحـبـكَ مـن جـوابٍ
وإنْ نَـطَقـوا، فـمـا نَـفْـعُ الـكَـلامِ
تـرى فـي نـومـهـا عـربـاً أغـاروا
وخـيـلاً فـي احـتـشـادٍ واضـطرامِ
تقـول أتى الخـلاصُ وحيـن تصحـو
تـرى الإف ١٤ والإف ١٥ والإف ١٦
وطـائـرات الإنـذار الـمـبـكـر
إواكس وحـامـلات الـطائـرات، الهـائلة

الحجم/ يتعيَّنُ عليها أن تميِّزَ بين أشكالِ القنابلِ/ تتذكرُ أنَّ العَرَبَ يمتلكونَ شيئاً لِرَدِّ ذلكَ غيرَ الخيولِ والمشانِقِ/ تتذكَّرُ كيف ضربَها مدرِّسُ الإنشاءِ واللغةِ العربيّةِ/ بالمسطرةِ/ ثلاثَ مراتٍ/ لأنّها تلعثمتْ وهي تُسمِّعُ بيتَ الشعر القائل: (وَغَرَّكُمُ طولُ الجيوشِ وعرضُها/ عَلِيٌّ شَروبٌ للجيوشِ أكولُ) ويخطر ببالِها وهي تشاهد أولادَها القتْلى تحت أغطيةِ

النايلون والذبابَ/ أن لتلكَ القنابلِ صوتاً يشبهُ الصهيلَ/ كيف يصهلُ ما ليسَ خيلاً؟/ خصوصاً حيث لم يَعُدِ المرءُ يرى الخيولَ تركضُ/ على الأوتوستراداتِ/ ولا في قاعاتِ فنادقِ المدن/ التي تسهرُ طويلاً على موسيقى الرّوكْ والمواويلِ العثمانيّةِ/ وتصحو على الصُّحُفِ/ المبسوطةِ من كلِّ شيءٍ في البَلَدْ .....!

وتدفِنُ نِصْفَ من وَلَدَتْ بِكَفٍّ ... وبالأخرى تشيرُ بالاتِّهامِ
تقول كَفى وتبكي ثم تَبكي ... وتبكي ثم تَخْطو للأمامِ
وداعاً يا فصاحَتنا، سئمنا ... ويا عينَ البلاغَةِ فلتنامِي!
لم يعدْ صالحاً للمقامِ المَقالْ
لم يَعُدْ أولُ الشّيءِ أوَّلَهُ
لم يَعُدْ آخرُ الشّيءِ آخِرَهُ
لم يَعُدْ واضحاً ما يُرى
لم يعد واضحاً ما يُقالْ
لم يعد واضحاً مَنْ عَدُوِّي
وأين جداري الأخير

* * *

بنادقُنا في الأيادي
ولكننا لم نُسدِّدْ على
شرِّنا المُستطيرْ

* * *

بنادقُنا في أكُفٍّ
نساءٍ من الرَّعْدِ والوَرْدِ
لكنها المرأةُ الشيءُ

يصنعها الرَّجلُ الشيءُ شيئاً فشيئاً
فتغدو كما يشتهيها
وتفقدُ ما تشتهي
ثم تهبطُ في سُلَّمِ العُمرِ
عاماً
فعاماً
فعاماً
وفي القاعِ تبكي . . .
ولكنها لا تُعَلِّمُ طِفْلَتَها
أن . . . تطيرْ!

* * *

بنادقُنا في أيادي الرجالِ
ولكنَّهُ الرَّجُلُ الشيءُ
يحيا بعقلِ المُسَدَّسِ .

* * *

أوصافُنا في اتساعِ السُّهولِ
وبين يدينا تقومُ الجبالُ
وقد حَمَّلَ الدَّهْرُ أكتافَنا
مثلما حَمَّلَ اللَّهُ آدَمَهُ
إرثَ أرضٍ وذُرِّيَّةٍ
خَطْوُنا سوف يُرسي لها مالَها مِنْ مصيرْ.
لِنَسْتَنْفِرَ الزَّغَبَ الفُستقيَّ على قاحِلِ الأرضِ
نرشقُ فوق الغصون براعمَ شهباءَ

نبعثُ في خُضرةِ العُشب حَنُّونَةً
وَدَّ أصفَرُها لو يسيرْ.
ونحمل دلواً يفيضُ بألوانِنا
وندور لنطلقَ آلاءَنا في الذوائِبِ
نُعطي المساحاتِ ألوانَها
نتحمَّلُ في صمتنا هول فصلٍ بليدٍ
لنُطْلِقَ زلزلةً في الجُذور. . . . . .

غير أننا هُنا/ هُنا حيث تزدحم النواهي/ والتعاليمُ/ هُنا حيث السُّلْطَةُ تقيمُ فِخاخَها الجميلةَ/ شجرةً تتدلى منها أسماء العائِلة/ مشنقةً تتدلى منها الثمار/ مباهجَ تتلألأُ وهي تستدرجُ العصاةَ/ هُنا حيث الضجيجُ يحيطُ بكلِّ هَمسةٍ/ هنا حيثُ يقنعونَكَ/ حيث الطُّرُقُ مُقامَةٌ سَلَفاً/ والمجهولُ مُكْتَشَفٌ/ فلا حاجةَ لملاحقةِ غامضٍ/ ولا حاجةَ للأسئِلة!

شيء تَسَرَّبَ مِنْ أصابِعكَ الجميلةِ يا فَتى
شيء تَكَسَّرَ في يَديْكَ
وفي زخارِفِكَ الرقيقةِ
في ملامِحِكَ المُقيمةِ
في الزمانِ
وفي أفاريز البناءِ
وشاهَتِ الصُّوَرُ المُنَمنَمَةُ الدَّقيقةُ
حيث ينحلُّ الجَمادُ إلى صهيلٍ في رُسومِكَ
فاضَ عن حجمِ الإطارِ
وزادَ عن سِعَةِ الجدارِ
فلا إطارَ ولا جَدارَ يناسِبُه

شيء أصابَ كلامَك العربيَّ يا عَرَبيُّ
تسقطُ من بساطِ فسيفسائِكَ قطعةٌ
فتجرُّ أخرى
تَبْهَتُ الألوانُ في سجّادةِ المِحرابِ
في إفريزهِ الذّهبيِّ
يرتبكُ انسجامُ المُتْحَفِ الملآنَ
ترتبكُ المَعاركُ والقصائدُ
دع (مُثار النَّقْعِ) تهوي في الكَلامِ (كواكِبُهْ)
واتركْ خُيولَ الشِّعر ترمي
(في التفاتتها)
شُعاعاً يلمس الكَتِفَ القَريبَ
وَدَعْ وقُوفَكَ (بين أجفانِ الرَّدى)
دَعْ عنكَ جيشَ القولِ إذْ
(تهتزُّ حَوْلَكَ مثلَ أجنحةِ العُقابِ) جوانِبُهْ
واتركْ (رَميتَهُمُ ببحرٍ من حديدٍ)
كلُّ مملكةٍ يصعِّر خدَّها مَلِكٌ ولكنْ
(لا سيوفَ تُعاتِبُهْ)
شيءٌ تكسَّر وانحنى
في غُربةِ «الأرابيسك»
في صَدفٍ يُفضِّضهُ الغُبارُ
وفي جداريات حُلْمِكَ حين تُغمِضُ
في رُواقِ المرمرِ العربيِّ
ينهضُ فوقَ أعمدةٍ تآكلَ بعضُها

والبعض ينبضُ في شروخٍ فوق أقواس القباب
وفي تعاشيقِ الزّجاجِ وفي رذاذِ الشمس تنثرهُ
السنابل وهي تركُضُ
في فتاةٍ مع طلوعِ الفجرِ تنفضُ عن حصيرتِها الغبارَ
ولا تُروَّضُ مثلَ
حاكِمِها المُطَهَّمِ بالحراسةِ
والمُرصَّعِ بالجيوشِ ومجلسِ الوزراءِ
لا الآتي أتى حقاً
ولا الماضي مضى
هذي ابتسامتُه وتِلْكَ مَخالِبُهْ!
يتكرّرُ الذُّلُّ المُحَصَّنُ بالمزاليجِ القويةِ
والمعبأُ في قواريرِ البَلاغةِ
والمخبأُ في الفَخَارِ
كما التعفُّنُ في اللآلىء والأناقةُ في المَحارِ
تقول لي امرأةٌ
كأنّا لَمْ نَضَعْ فوقَ المحاريثِ اليدينِ
ولا رَتَقْنا جَوْرباً في ليلةِ العيدِ الكبيرِ
ولا سقَيْنَا شتلةً عَطِشَتْ ولا عِشْنا
كأنَّ المَوْتَ يلعبُ بالبنانيرِ الصغيرةِ
بين صبيتِنا الصغارِ ولا نزالُ نُلاعِبُهْ.
شيءٌ تَكَسَّرَ في مُصافحةِ اليدينِ
فكَمْ بأيدينا نضيعُ وكَمْ بأيدي من حَمَانا!
كم بأيدي مَن أمِنَّا في الغُروبِ

ومع شُروقِ الشمسِ خانا
كم بأيدي مَنْ تَوَغَّلَ في محبَّتِنا وأوغَلَ في دِمانا
شيءٌ تَكَسَّر في سُقوفِ التوتياءِ
المائِلاتِ على اكتظاظ العائلاتِ، وفي
انزلاقِ الدَّمعِ عن سقفِ الزغاريدِ المديدةِ
وارتفاعِ الهَلْهَلاتِ وفي القُلوب الآهلاتِ
بمنزلٍ تُنسى وتُذَكَرُ في الشَّتاتِ مَلاعِبُهْ
يخبو بريقٌ في مَلامِحِكُمْ ويعلوها غُبارٌ لامِعٌ
هاتوا مراياكُمْ لنبصرَ وجهَ من صاروا العِدى
وسنُحْضِرُ المِجرافَ والفأسَ القويَّ
لكي نُباعِدِ بين أطرافِ المَدى
حتى نُهيّءَ مَطْرحاً لصُراخِنا
هاتوا مرايانا لنعرفَنا ونقسو مرةً
هذا الحبيبُ نحبُّهُ
هذا الحبيبُ نعاقِبُهْ.
لا شيءَ مما تتقنونَ يرد عَنْكُمْ خيبةً
لا فتنة الماضي العزيزِ تردّها عنكمْ
ولا من خافَ من أوصافِهِ
مَنْ خافَ عشبَ ضِفافِهِ
مَنْ صان مُلْكَ يمينِهِ بالجدِّ في إتلافِهِ
وَبِكَفٍّ مُتْلِفِهِ استعانْ.
مَنْ أذْهَلَ الأرابيسكَ عن آلائِهِ وجَمَالِهِ
ووشى به «للقُبَّعاتِ الخُضْرِ»

مَنْ أَخَذَ النَّصائِحَ مِنْ «مُشاةِ البَحر»
من خَسِرَ الملامِحَ عندما كَسِبَ الرِّهانْ.
يا أيها العربيُّ يا سِحْرَ البَيانْ
مَنْ يُبصرُ المَخْفِيَّ في أرجاءِ روحِكَ
ها هما خَطّانِ في الرّادارِ
خطُّ النارِ يقطعُ خَطَّك الكوفيَّ
ثُمَّ يُسدِّدَانْ!

* * *

ما الذي ارتجَّ في غُرَفِ الرُّوحِ
أيُّ الكُسورِ تَبَدَّتْ بأعتابِها؟
مَنْ يَمُدُّ اليَدينِ ليُلقي مِن الشُّرُفاتِ
سجاجيدَها الدافئاتِ
ويطفىءَ فيها مصابيحَها
ويهمَّ بتقويضِ أبوابِها
لَوْحَةُ الاسمِ مشبوكةٌ في الجِدارِ
بمسمارِها الواحدِ المُتبَقّي
ومخلوعَةٌ من ثَلاث زوايا
كأنّي بها سوفَ تسقطُ عن حائِطي
ما الذي دار في غُرَفِ الرّوحِ؟
في غُرفةِ الارتعاشِ الحميمةِ
في غُرفةِ الاندهاشِ العظيمةِ
في غُرفة الخوفِ في غرفةِ المبهجاتِ
وبين ممراتِ حكمتها المستقيمةِ

في غرفةِ الانتقام المُغطى ببُردايةٍ
من حريرِ الحصافةِ والانتظارْ؟
ما الذي دار في غُرف الروح
ثرثرةٌ في مرايا حوائِطها أم حِوارْ؟
كان صوتٌ يبشِّرُ بالفَرَح المستتبِّ:
«لماذا التباكي
تسيرُ الأمورُ على ما يرامُ
فلَمْ يرتكِبْ أحدٌ خطأً قاتِلاً بعدُ
هل ييأس الشعراء اطمئنَّ فإنّ النهار. .»
. . .
يقاطعه الآن صوتٌ،
«سئمت طلاوةَ ترنيمةِ النومِ
طوقُ النّجاه الذي ظل يرميهِ راميهِ
قد شدَّني للقَرارْ
وإني. . .»
يقاطعه الآن صوتٌ:
«كأنَّكَ تحمل سلَّتَنا كلِّنا
ثم إنك لولا. . .»
يقاطعه الآن صوتٌ:
«لَعَلَّ الحقيقةَ أنَّ التداخُلَ بين الصوابِ وبين الخطأ
دقيقٌ، لعلَّ على المرء. . .»
صوت يقاطعه الآن:
«مَنْ قالَ إنَّك أنتَ الطبيبُ؟

ستمشي الشوارعُ طبعاً كما شاء إسفلتُها -
وستمشي الجنازةُ طبعاً كما قررتْ لجنةُ الدَّفْنِ
والرايةُ المستقيمةُ سوفَ ترفُّ
بمقدار ما ستهبُّ الرياحُ
سينطرحُ النّمْر أرضاً على ظهرِهِ
في انتظارِ مخالبِ أعدائِهِ
حينما لا يُتاح انتصارٌ له أو فرارْ،
ولو شئت. . . »
صوت يقاطعه:
«ألف شكراً لهذي المواعظِ
هل أنتَ تقصدُ أنَّ البلاءَ بلاءٌ
وماذا يقول لنا الشِّعرُ
أم أنه مولعٌ بالمَواجع يُكْتَبُ حتى نصفِّقَ
في موتِنا لِجمالِ الرثاءِ الجميلِ
وترويجهِ للجُنونِ وللإنتحار؟
لماذا يرى الشُّعَراءُ الذين. . »
يقاطِعُهُ الآن صوتٌ، وصوتٌ يقاطِعُ صوتاً
يقاطعه آخرٌ
غُرَفُ الرُّوح تكتظُّ بالكائناتِ الشريدةِ
حيثُ السّجاجيدُ تُلقى من الشُّرفاتِ
وحيثُ المصابيحُ، والعتَباتُ، وأبوابُها
تتهاوى. . .
ولكنَّ اسمَنتها لم يَزَلْ صالحاً لاحتمالِ

ارتجاجاتِها المُقْبِلَةْ.
غُرَفُ الرُّوح تحتشدُ الآن بالأسئِلة
لا إجابةَ في الشعرِ أو في السكوتِ
ولا في ثلاثينَ ألف مكبر صوتٍ تصيحُ
ولا في يدٍ تمسح الدمعةَ المُهمَلةْ
ستركضُ أسئلةُ الروح من غُرف الروح
حتى تلامسَ طينَ الزُّقاقِ
وتنثَر حيرَتها في يقين الرفاقِ
تشكِّكَ في الفَرق
بين الخلافِ وبين الشقاقِ
وفي الفرق بين الهوى والعناقِ
وفي الفرق بين فُتات المَسائِلِ والمَسألةْ.

* * *

نعاسٌ منْ الريشِ
يهبط حولي، وظلّي ينامْ
ضبابٌ من الفستقِ اللّين اللونِ
طوَّقَني حين طوَّقْتُ سيدتي
مثلما وَرَقُ الوردةِ المتداخلُ
في بعضِهِ
وانتشاءاتُنا تتصاعدُ من قاعِها
نحو أكتافِنا، مِنْ حُدود الأصابعِ
حتى الجبينِ ومنهُ إلى رعدةِ الروحِ في كهرباءٍ
تُميتُ وتحيي العِظامْ

يطيرُ النُّحاسُ رقائقَ شفافةً
والمزاليجُ تَسْقُطُ في الرَّمْلِ دونَ رنينٍ
ولا بابَ يُغلِقُ أبوابَهُ دونَنا،
كلُّ سرٍ يقولُ لنا الآن مُرّوا عَلَيَّ
افضحوني
ولا سورَ يرفعُ أسوارَهُ بيننا.
أستطيعُ مِن الآن أن أكتُبَ الشِّعرَ
عن ضَجَري، أو كما يكتب الدّنمركيّ عن غابةٍ
في الضبابِ وأكتبَ شعراً كما تشتهي
اللجنةُ الملكيَّةُ في النرويجِ الآن أو في السويد،
فَيُسقِطُ نُقّادُنا جُرْمَ تسْييسِنا للقصيدةِ!
. . . إنّ التوازنَ مكتملٌ/ كيف تأتي الكتابة؟
إن التوازنَ مكتمل الإختلال/ فكيف الكتابة!
أدرك أنّي أقيمُ بقنطرةٍ بين هذا وذاكَ
فلا الموتُ مكتملٌ في يَدَيَّ، ولا الإنسجامْ.
سأكتبُ نفسَ الكَلام، ولكنني
سوف أدخِلُهُ في تُراب الحياةِ
لِأُخرِجَهُ من سَراب الكلامْ
فسيدتي امرأة ذاتُ همٍّ
تُخَطّي القناطرَ في حذرٍ متعبٍ
مِنْ زياراتِها للمقابِرِ حتى الوظيفةِ
حتى هُبوب الظلامْ.
سيمرقُ سهمٌ وآخرُ من بيننا

إن سيدتي (وهي ليستْ بأحلى النساءِ جميعاً،
ولكنّها حلوة) تتمنى انتصارَ المباهجِ
لكنّنا لم نَعُدْ مثلما تشتهينا القصائدُ
عِطراً وريشاً ومشطاً وكومَ جواهرَ
/بعثرها شاعرٌ جاثمٌ في مَهَبِّ النساءِ/
على الرسغ والأذن والنحرِ
أو كومةً من هُيامْ.
فإن الحياة لحوحٌ، ولا تتأجّل من أجلنا،
نحن ممتلئان بها نشوةً وانكساراً/ جنوناً وعقلاً/ حناناً وخبثاً/
وهل يشهقُ العِشْقُ في جَسَدٍ أجوفٍ
نحن أنّى مشينا لمسْنا النقائضَ كفاً بكفٍ
فنسأل، هل مِن أساسٍ تبقّى لَنا
تحت كَوْمِ الحُطامْ
لنبني ممالكَنا المرتجاةَ، ونُسقِطَ ما يُثقِلُ الرُّوحَ عن عرشهِ
ثم نمضي (وهل نستطيعُ) من الحزنِ للحُبِّ
من حَجَرٍ للغَمامْ.
نعاسٌ من الريش يهبط حولي وظلّي ينامْ
نحاسٌ يطيرُ رقائقَ شفافةً في اخضرار السَّحَرْ.
طلقَةٌ في الشَّجَرْ
قتيلٌ يموتُ بأعدائِهِ
قتيلٌ يموتُ بأخطائِهِ
طلقةٌ في جدارِ الصفيحِ، وأخرى
على حُلُمٍ من حَجَرْ

صغيرٌ يخافُ الجنازةَ
يمشي ويبكي وينقسمُ الكونُ نصفينِ في خَطْوِهِ
وهو يسألُ جدَّتَهُ هل سَنُهْزَمُ في الحربِ أم ننتصرْ؟
ومَنْ سوف يسقي نباتَ الحديقةِ في ساعة العصرِ عند الرحيلِ
ومَنْ سوف ينشيءُ مكتبةً في ثلاثينَ بيتاً وسجناً
ومن سَوفَ ينعس عند انتظار الصبيِّ
الذي لم يَعُدْ، والقذائِفُ تهمي ويهوي المَطَرْ
نحاسٌ صغيرٌ خطيرٌ يطيرُ
وسنجابةٌ تستديرُ على الغُصنِ طامعةً في النجاةِ
فتهربُ من أمْنِها للخَطَرْ
/طلقةٌ في الشَّجَرْ/ طلقةٌ بيننا . .

* * *

جسمي يعرّفها بمنطقِ جسمِها ويدلُّها عمّا بداخِلِها
وهي التي تعطي لأوصافي ملامِحَها
وكأنّنا ـ باللّمسِ ـ مكتشفانِ
تَهْمِزُنا مجاهيلٌ وتُطْلِقُنا كمذعورَيْنِ
نحو غوامضٍ فينا نُوَضِّحُها
وَنَسْتَهدي على أسرارِ جسمَيْنا
فنكتمُها ونفضحُها.
جَسَدان كلٌ مِنْهما يحكي بلَهْجَتِهِ
فتصعدُ فيهما لُغةٌ لها آلاؤها
مِنْ تأْتآتِ الكَفِّ حتى شهقةِ الكتفيْنِ
حتى غمغماتِ النَّمْلِ فوقَ عَمُودِنا الفقريِّ

مَنْ يُقصي صِفاتِ زماننا عَنّا، ويحمينا؟
فلسنا اثنين في قمرٍ خصوصيٍ
وليس لنا جزيرتُنا ولا يكفي لنا عشٌ «الأغاني»
نحن نحتاجُ الطعام وشربةَ الماء التي تأتي
على عطشٍ،
نريدُ سقوفَنا وبلادَنا، ونريدُ بيتاً
كي يعرَّفَ جسمُها جسمي بلهجتِهِ
فهل لا بُدَّ مِنْ خَوْضِ المَعارِكِ كيْ تكونَ
لِرعشةِ الروحينِ رِعشتُها
وكي تصفو نقوشُ الوَقْتِ ثانيةً
بفستُقِها ولَيْلَكِها وفضّتِها،
ونخلعَ عن أمانينا بلاهاتِ التمني
ثم نطلقَها
وهل لا بد من خوض المهالك كي ننالَ الحقَّ
في كسل الصباح وفي التثاؤبِ في سريرِ الجدِّ
في تحديدِ عُطْلتِنا،
وحقَّ وقوعنا في أفدحِ الأخطاءِ
حقَّ اللّهو والتجوالِ،
حقَّ كتابةِ الأشعارِ دون خنادقٍ تكتظُّ بالأعمارِ
حقَّ الاختلافِ مع الحبيبِ، مع الزَّعيمِ
وحقَّنا في الموتِ بالأمراضِ
حقَّ النار بالأخشابِ
حقَّ البابِ بالمفتاحِ

حقَّ الجدِّ بالأحفادِ
حقَّ البحر بالأمواجِ
حقَّ العاشِقِينَ بما ستفرضُهُ مساماتُ الهِياجِ
وفي إطاعَةِ لا أَحَدْ؟

* * *

غُرَفُ الرّوح تكتظَ بالكائناتِ الشريدةِ
حيثُ السجاجيدُ تُلقى مِن الشُرفاتِ
وحيثُ المصابيحُ والعتباتُ وأبوابُها تتهاوى بصمتٍ
ونحنُ نقيس ارتفاعاتِنا بارتفاعِ الرُّكامْ
وصوتٌ يصيحُ بقلبي، سَقَطْنا،
وصوتٌ يصيحُ بقلبي، قِيامْ!

أواخر/١٩٨٥/ أوائل ١٩٨٦

طال الشتات

مريد البرغوثي

دار الكلمة للنشر تلفون 803740 ـ ص ـ ب 5288 / 13 ـ بيروت لبنان